منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة
ISLAMIC WORLD EDUCATIONAL, SCIENTIFIC AND CULTURAL ORGANIZATION
ORGANISATION DU MONDE ISLAMIQUE POUR L'EDUCATION, LES SCIENCES ET LA CULTURE

سلسلة الدراسات التخصصية في مجال
تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها

في فلسفة الأداء الصوتي في القرآن الكريم للمتعلمين

د. سعد عبد الغفار | د. عطية يوسف

سلسلة 9
2021
مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها





د. سعد عبد الغفار
كلية الآداب
جامعة الوادي الجديد،
جمهورية مصر العربية

د. عطية يوسف
كلية الدراسات الدولية واللغات
جامعة إنديانا،
الولايات المتحدة الأمريكية

النَّصُّ القرآني نَصٌّ شَفاهيٌّ بالمقام الأول، تلقَّاه النَّبيُّ، صلى الله عليه وسلَّم، مشافهةً عن جبريل، عليه السَّلام، ومن ثَم كان الأصل في حفظه التَّلقي عن أصحاب الأسانيد المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لِمَا له من خصوصيةٍ في الأَدَاء لا تنفصلُ عن مراد الله تعالى فيه؛ ولهذا الاعتبار رَاحَ علماء القراءات يجتهدون في ضَبط طُرقِ الأَدَاء القرآني، فوضعوا علمَ التَّجويد، وعلمَ الوقف والابتداء.... وهم شاخصون في ذلك كلِّه إلى ضبط الأداء القرآني؛ ليَحسُنَ فَهمُ النَّاسِ وتلقيهم عن كتاب الله تعالى؛ وليحافظوا على خصوصية النَّغم القرآني، الذي كفلَ له أنْ يُدركَ ضمن استمراريَّة عابرة للتاريخ، متجاوزة للتموقع والتَّحقيب الزَّماني، والفضاء المكاني.

ويمثل الأَدَاء الصوتي للقرآن الكريم بهذا المفهوم ظاهرةً شديدة الاتساق والانضباط؛ بوصفها قرينةً صوتيَّةً يُعوَّلُ عليها في توجيه المعنى وإفهامه، وتُسليط الضوء على خصوصية الأداء القرآني، الذي يُقيمُ من نفسِهِ حُجَّةً على إعجاز هذا النَّص للناطقين بالعربية، والناطقين بغيرها، ومن ثَم التسليم بكل ما جاء به.

المؤلفان

JOIN US ! انضموا إلينا REJOIGNEZ-NOUS

مُنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة
ISLAMIC WORLD EDUCATIONAL, SCIENTIFIC AND CULTURAL ORGANIZATION
ORGANISATION DU MONDE ISLAMIQUE POUR L'EDUCATION, LES SCIENCES ET LA CULTURE

في فلسفة الأداء الصوتي في القرآن الكريم للمتعلمين

د. سعد عبد الغفار
د. عطية يوسف

منشورات منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو-
مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها

2021

المحتويات

كلمة المركز

يؤمن مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها بأن معيار نجاح اللغات وتفوقها اليوم يعتمد بشكل كبير على قدرتها على استيعاب التقدم العلمي والتكنولوجي، واستعدادها لدخول معترك التنافس لانتزاع الأسبقية والتوسع خارج حدودها الجغرافية.

وإذا كنّا نفخر بكون اللغة العربية إحدى أكثر اللغات قدرة على مواكبة المكتسبات المستجدة، لما تمتلكه من مقومات البقاء والتطور والتجدّد والازدهار، فإنّ تمكين اللغة العربية من استعادة مكانتها وموقعها على الخريطة العالمية لا يمكن أن يتحقق إلا بالعمل الجماعي التشاركي، بحيث يكون الجميع شركاء في حمايتها وخدمتها.

من هذا المنطلق، وتنفيذا لتوجيهات معالي المدير العام للإيسيسكو الدكتور سالم بن محمد المالك، الرامية إلى تعزيز حضور الإيسيسكو في مجال البحث العلمي والنشر، أطلق مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها «سلسلة الدراسات التخصصية في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها»، لدعوة الباحثين في المجال من مختلف المؤسسات الأكاديمية والمراكز البحثية والمنظمات المتخصصة للعمل على تسريع وتيرة انخراط اللغة العربية في عصر الثورة الصناعية والرقمية، وتعزيز حضورها على الصعيديْن الإسلامي والدولي، من خلال تشجيع المبادرات والجهود الرامية إلى رفع مستوى الأداء والعمل والتعامل معها.

يندرج مشروع إصدار هذه السلسة في إطار الرؤية الجديدة للإيسيسكو الهادفة إلى أن تكون مركزا للريادة الدولية في بناء القدرات والتأهيل التربوي للمؤسسات والأفراد ودعم البحث العلمي المتخصص، ويمثل المشروع مبادَرةً تربوية ذات طابع أكاديمي، تهدف إلى دعم إنتاج الدراسات المتخصصة والبحوث التربوية التطبيقية في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها. وتتكون السلسة من تسع إصدارات يجمعها موضوع مشترك، وهو تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، ولكن جوانب متنوعة وزوايا مختلفة، وتحمل هذه الإصدارات العناوين الآتية:

1. الضعف اللغوي لدى متعلمي اللغة العربية الناطقين بلغات أخرى: المظاهر والانتشار والعلاج؛
2. تصميم نموذج التعليم الإلكتروني عبر تطبيقات (Web 2.0) ويب 2.0 للغة العربية للناطقين بغيرها لأغراض خاصة؛
3. قضايا وإشكالات في تدريس اللغة العربية وثقافتها للناطقين بغيرها: رؤية لسانية؛
4. مدخل إلى توظيف الخطابة في تعزيز الكفاية اللغوية للناطقين بغير العربية؛
5. اللسانيات التعليمية وتنمية القرائية لطلاب اللغة العربية للناطقين بغيرها؛
6. النّحو التّعبيريّ: مقاربة جديدة في تعليم النحو العربي وتعلّمه للناطقين بغير اللغة العربيّة؛
7. نحو إطار مرجعي موحّد لتعليم اللّغة العربية وتعلّمها لغير النّاطقين بها؛
8. دليل التقويم في تعليم اللغة العربية وتعلمها للناطقين بغيرها: تحويل الممارسات من التقويم الورقي إلى التقويم الرقمي البديل؛
9. في فلسفة الأداء الصوتي في القرآن الكريم للمتعلمين.

والكتاب الذي نحن بصدده هاهنا «**في فلسفة الأداء الصوتي في القرآن الكريم للمتعلمين**»، للباحثين: الدكتور سعد عبد الغفار والدكتور عطية يوسف، يتناول الأداء الصوتي القرآني بوصفه أحد العوامل المؤثرة في توجيه المعنى وإفهامه، ويطرح سبل الإفادة من الأداء القرآني في تعليم اللغة العربية للناطقين بها والناطقين بغيرها في تنمية المهارات اللغوية للمتعلمين.

ختاما، لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى معالي المدير العام للإيسيسكو، الذي أولى المركز عنايته الخاصة من خلال متابعته الشخصية لأنشطة المركز وبرامجه، كما لا يفوتني أن أحتفي بمؤلفي هذا الكتاب، وأحتفي أيضا وأشيد بالمجهود العلمي البارز لجميع الباحثين الذين أثروا هذه السلسلة بأعمالهم المتميزة، وأتطلع إلى مزيد من الأعمال العلمية التي تتناول مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها في المستقبل القريب، وآمل أن تتكامل الجهود العلمية مع الجهود التنفيذية لمد جسور التعاون والتكامل بين المؤسسات ذات الأهداف المشتركة.

رئيس مركز الإيسسكو للغة العربية الناطقين بغيرها

أ. د. مجدي حاج إبراهيم

مقدمة

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه والتَّابعين إلى يوم الدين، أمَّا بعد.

إن النَّصُّ القرآني نَصٌّ شَفاهيٌّ في المقام الأول، تلقَّاه النَّبيُّ، صلى الله عليه وسلَّم، مشافهةً عن جبريل، عليه السَّلام، ومن ثَم كان الأصل في حفظه التَّلقي عن أصحاب الأسانيد المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لِمَا له من خصوصيةٍ في الأَدَاء لا تنفصلُ عن مراد الله تعالى فيه؛ ولهذا الاعتبار رَاحَ علماء القراءات يجتهدون في ضَبط طُرقِ الأَدَاء القرآني، فوضعوا علمَ التَّجويد، وعلمَ الوقف والابتداء، وهم شاخصون في ذلك كلِّه إلى ضبط الأداء القرآني؛ ليَحسُنَ فَهمُ النَّاسِ وتلقيهم عن القرَّاء؛ وليحافظوا على خصوصية النَّغم القرآني الذي يخاطب في المتلقي إحساسه، لا سيَّما أنَّ القرآن يخاطب مَلكَتَيْن بشريتَيْن، هما: العقل، والعاطفة؛ خالقًا نوعًا من التَّوازن بينهما[1]، فمضمونُه - بوصفه خطابًا حِجَاجيًّا - يخاطب العقل، وشكلُه (ونقصد به هنا طريقة ترتيله) يخاطب الإحساس، وهو ما يُفسِّر لنا انتشاء عوام المسلمين -عربًا وغير عرب- بترتيل القرآن الكريم عند استماعهم للقرَّاء المهرة، رغم عدم إلمام كثير منهم بمعانيه على النَّحو الأمثل. هذا، فضلًا عن مشاعر الإيمان التي تسيطر عليهم حال الاستماع إلى التِّلاوة.

ولما كانت التِّلاوة هي الشَّكل الذي يتواصل القرآن من خلاله مع المخاطَبين كانت العناية بالأداء القرآني أمرًا أساسًا في تلقي وفهم القرآن الكريم. ونلفت في هذا السِّياق إلى أنَّ سِمَتا التِّلاوة والتَّرتيل (الشفاهية، والتكرار) اللتَيْن يتصف بهما القرآن الكريم كفلتا له أنْ يُدركَ ضمن استمراريَّة عابرة للتاريخ، متجاوزة التموقعَ والتَّحقيبَ الزَّماني، والفضاء المكاني، وهذا هو ما يطلق عليه المستعرب أسعد دوراكوفيتش "الانغمار المطلق للنَّص القرآني في السِّياق"[2]. هذا الانغمار المطلق في السِّياق البشري، والسِّياق الكوني هو الذي جعله يبدو معاصرًا بشكل ملحوظ دائمًا[3]، للناطقين بالعربية والناطقين بغيرها من المسلمين خاصَّة.

وإذا كان القرآن كلُّه كالقطعة الواحدة، يجوز الوَصْلُ فيه أبدًا، فإنَّ اجتهاد علماء الوقف والابتداء في وضع علامات للوقف والابتداء، إنَّما هو من قبيل الاجتهاد الضَّابط، الذي يتسعُ للخلاف المُعتَبر؛ لكون هذه العلامات غير توقيفيَّة؛ ولذلك قالوا: ليس في القرآن وَقْفٌ وَاجِبٌ. ووكدُهم وغايتهم في هذا كله ضبط الأَدَاء القرآني وإفهام المعاني، وتفصيلها؛ ليكون ذلك كله معينًا على حسن ترتيل القرآن الكريم

---

1 ينظر: علم الشرق، عالم النَّص المقدس: أسعد دوراكوفيتش، ترجمة: عدنان حسن، مؤسسة سعود البابطين، الكويت، 2010م، ص 89.

2 ينظر: Orientology. The Universe of the Sacred Text, p 34.

3 وهو ما نفتقده في تراثنا الشعري اللهم إلَّا في بيوت الحكمة المتقنة التي تعالج قضايا وتجارب إنسانية عامَّة، كما نرى في شعر أبي تمام والمتنبي على سبيل المثال.

وتدبر معانيه، والوقوف على مقاصده ومراميه، وحسن التَّلقي عن الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 82).

هـذا، ويُعـدُّ الأَدَاءُ أحدَ العوامل المؤثِّرة في توجيه المعنى وإفهامه، بوصفـه قرينةً صوتيَّةً (لفظيةً) يُعوَّلُ عليها في فهم النَّص القرآني المُرَتَّل، وهـو من هـذه الجهة أيضًا يُعدُّ أحد أسباب الفَصْل والوَصْل على اختلاف مواضع كل منهما؛ وفقًا لما يقتضيه المعنى وتطلبه الدلالة.

والأَدَاءُ بهذا المفهوم ليس ظاهرةً صوتيَّةً فوضويةً يَعمدُ إليها كلُّ راغب، وإنَّما هو ظاهرةٌ شديدةُ الانضباط؛ لكونه منقولًا إلينا بالسَّماع والتَّلقي عن مَشيخةٍ عدول. ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (البقرة: 121).

وقد يَختلفُ القُـرَّاءُ في وجُوهِ الأَدَاءِ مع كون اللَّفْظِ واحدًا، ولا يُنَافِي اختلافُهم في كيفيَّة الأدَاء التَّوَاتُرَ؛ إذْ لا يُعَدُّ خِلَافًا في القرَاءَةِ؛ لأنَّ المخالفةَ المُضْعِفَة للقراءة هي المخالفة المؤدية إلى اختلاف النُّطْقِ بحروف الكلمة.

هذا، وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في شأن الحثِّ على حسن الأداء القرآني، منها قوله صلى الله عليه وسلَّم: (زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)، وقوله : (مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ كَإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ)، ولا يعني التَّغني بالقرآن قراءته على ألحان وأنغام أهل الفسق، وإنَّما قراءته على لحون العرب وأصواتها وإعطاء كلّ حرفٍ حقَّه ومستحقه، ومراعاة مواضع الوقف والابتداء فيه والمد، والسَّكت...إلخ

ومن العجيب أنَّ الأداء القرآني يركز على الصَّوت البشري، بوصفه وسيلةً فريدةً يمكنها وحدها، وبشكل مطلق، المحافظة على نصاعة الأداء وجمال التِّلاوة، دون الحاجة إلى أية آلات موسيقية، فالله تعالى لا يريد للمسلم العربي وغير العربي أن يتواصل مع كلامه بواسطة زائدة عن الصوت والأداء.

ونحن إذْ نتحدث في (الأداء القرآني) فإنَّنا نلفتُ إلى أنَّ الأداء القرآني الصَّحيح المتواتر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أحد مظاهر فصاحة النَّص القرآني المُعجزة التي تمنحه قبولًا في السَّمع، وتمكنًا في القلب، وتُسلط الضوء على خارقيته، حيث يُسلمُ المسلمُ - عربيًّا كان أو غير عربي - نفسَه لهذا الأداء؛ ليعيش تجربة إيمانيَّة تجعل جميع الأشكال الأدبيَّة الأخرى على الهامش الأقصى من وعيه، بل ربَّما خارج دائرة وعيه!، وتلك أحد علائم ودلائل إعجاز النَّص القرآني[4] التي تتصل بشكله (طريقة أدائه)، تلك التي تحقق نوعًا من النشوة التي لا تشبع منها القلوب المؤمنة التي تشعر دومًا بخارقية هذا الكتاب المُعجِز، وإنْ اختلفت لغاتها وأجناسها!

إنَّ الأداء القرآني الصَّحيح يُقيمُ من نفسِهِ حُجَّةً للناطقين بالعربية، والناطقين بغيرها؛ لأجل اعتناق كل ما جاء به النَّص القرآني، وهو ما يدعونا إلى القول إن صوتيات النَّص القرآني وطريقة أدائه على النحو الصَّحيح المتواتر تُمثل مظهرًا من مظاهر الدَّعوة إلى الله تعالى. وهو ما تُفسِّره بعض الوقائع التي كان للأداء القرآني فيها أثرٌ واضح وفاعلٌ بشكل أساس في إيمان كثير من الناس في الشَّرق والغرب لا سيَّما غير الناطقين بالعربيَّة، وهو ما دعا أ.ج. أربري (A) .Arberry J أحد أفضل مترجمي القرآن الكريم إلى القول: " إنَّ القرآن سمفونيةٌ لا يمكن محاكاتها[5]"!

نعم، يمكننا القول باطمئنان إنَّ صوتيات الأداء القرآني الصَّحيـح تُمثِّلُ أحدَ آليات الدَّعوة إلى الله تعالى!، وهو ما عبَّر عنه البروفيسور أسعد دوراكوفيتش بقوله: "إنَّ شكل القرآن هو شكل تبشيري"[6]!

4 لا بدَّ أن نشير هنا إلى أنَّ ليس في مُكنة أحدٍ الوقوف على عِلة (كُنْه) الإعجاز القرآني، وإنَّما كلَّ ما كان من علمائنا لا يجاوز كونها محاولات جادة للوقوف على دلائل إعجازه التي تُستنبط من النَّص.

5 ينظر: , The Koran Interpreted Volume 2, London,1955. Arthur J. Arberry

6 ينظر: علم الشرق، عالم النَّص المقدس، ص 105.

كما أنَّ كتابته وشفاهيته تُمثِّلُ أحدَ مظاهر خارقيته التي تفيض على العالم في تدفق مستمر؛ إذْ لم تُزح أيٌّ منهما الأخرى، فقد تعايشا معًا بشكل مُبهر، فهو يُقرأُ كلَّ يوم من السُّطور والصُّدور، بالهيئة والكيفيَّة التي أرادها الله تعالى له. والعجيب أن ظلتْ الشَّافهيَّة هي المصدر الأصيل والأساس المُوثِّق لحُجيَّة النَّص القرآني رغم هذه الطفرة التكنولوجية المُشَاهَدَة في طباعة وزخرفة المصحف الشَّريف كمًّا وكيفًا! إنَّه النَّص الوحيد في تاريخ البشرية الذي وَثَّقتْه الشَّفاهيةُ (التَّحمُّل والأداء) بطريقة فائقة الموثوقيَّة!

ونحن إذْ نقدِّم هذا الكتاب للناطقين بغير العربية - لا سيَّما في البلاد الإسلامية النَّاطقة بغير العربيَّة - نبغي الإجابة عن كثير من الأسئلة التي تدور بخلدهم حين يقرأون أو يستمعون إلى القرآن الكريم، وهي أسئلة سألني إيَّاها بعض الطلاب النَّاطقين بغير العربية في البوسنة والهرسك، وطشقند، حينما كنت أقوم بتدريسهم اللغة العربية، ومن هذه الأسئلة:

- لماذا يجب أن تُقلقلَ هذه الحروف (ق، ط، ب، ج، د) في كلمات آي القرآني إذا جاءت ساكنة؟
- لماذا يجب أن نمد بعض حروفًا بعينها في بعض كلمات الآي القرآني؟
- لماذا تتعدَّدُ نغمات القُرَّاء في تلاوتهم وترتيليهم للقرآن الكريم؟ هل لذلك دلالة؟
- لماذا يجب الوقف (الفصل) في بعض المواضع من الآيات، ولماذا يجب الفصل في بعض المواضع الأخرى؟

وغيرها الكثير من الأسئلة التي تخطر في أذهان كثير من الناطقين بغير العربية حين يستمعون للقرآن الكريم.

وسوف نستخدم في بعض فصول هذا الكتاب التَّحليل الصَّوتي؛ لنقف على البنية الصَّوتية الفيزيقية لبعض الآيات القرآنية، كما سوف نعرض لفلسفة الأداء القرآني من خلال المدود في القرآن الكريم هذه الظَّاهرة الصَّوتية التي تطرح عدَّةَ أسئلة، منها: لماذا نلتزم في المد الكلِمي اللازم المثقَّل في القرآن الكريم ستَ حركاتٍ في حين أن هذه الكلمات ترد في حديثنا العادي، ولا نمدُّها هذا القدر من المد؟

ويجب أن نشير إلى أنَّنا لا بدَّ أن نجعلَ على ذُكْرٍ منَّا ونحن ندرس ظواهر الأداء القرآني، من مدودٍ، وفواصل، وإدغامٍ، وإعلالٍ وإبدال، ونَبرٍ، وتنغيمٍ...إلخ، أنَّها أحد مظاهر تيسير الله تعالى كتابه العزيز للذِّكر، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: 17).

إنَّ الأداءَ القرآني بكلِّ مقوماته الصَّوتيَّة يقف برهانا على المرجعية الإلهية للنص القرآني، ومن ثم أصبح هذا الأداء مسؤولية كبرى يجب أن يتحملها قارئ القرآن العربي وغير العربي؛ لأنَّ الإدراك الكافي لدلالة الأداء القرآني وإيحاءاته الثرية يساعد على فهم النَّص القرآني، فالتَّجويد بوصفه مجسِّدًا للأداء القرآني هو شكلٌ تجدُ الكلمةُ من خلاله تعبيرَها الكامل في الصَّوت البشري.

والله تعالى نسأل القبول والتوفيق.

الفصل الأول

في مفهوم الأداء القرآني وفلسفته

الفصل الأول

في مفهوم الأداء القرآني وفلسفته

1. مفهوم الأداء القرآني

الأَدَاءُ لغةً:

أَصْلُ أَدَّى أَنْ يَكُونَ مُضَاعَفَ أَدَى- بِالتَّخْفِيفِ- بِمَعْنَى أَوْصَلَ، لَكِنَّهُمْ أَهْمَلُوا أَدَى الْمُخَفَّفَ وَاسْتَغْنَوْا عَنْهُ بِالْمُضَاعَفِ. تقول العرب: أَدَّى الشَّيْءَ: أَوْصَلَه، والاسمُ: الأَداءُ[1]. وأَدَّى دَيْنَه تَأديَةً أي: قضَاه، والاسم: الأَدَاء[2].

الأَدَاءُ اصطلاحًا:

وَرَدَ مصطلحُ (الأَدَاء) لدى علماء القراءات والتَّجويد بمعنى (النَّقل)، فَالأدَاءُ هو تَأديةُ القُـرَّاءِ القراءة إلينا بالنَّقـل عن شيوخهم[3]. وهـو عام في قـراءة الشيخ على تلميذه، وسماع الشيخ منه.

ويطلقون (الأداء) ويريدون به (التَّجويد) نفسه، قال صاحب تاج العروس: ويُقـالُ هـو حَسَنُ الأداءِ إذا كانَ حَسَـنَ إخْـراجِ الحـرُوفِ مِن مَخارِجِهـا[4]؛ ولهذا قالوا: إنَّ حُسنَ الأَدَاء فرضٌ في القراءة[5].

ذَكَرَ ابن الجزري أنَّ "لفظة الأداء كثيرة الاستعمال بين القراء، ويعنون بها تأدية القراء القراءة إلينا بالنقل عمن قبلهم[6]".

وقد يختلفُ القُـرَّاءُ في وجُوهِ الأَدَاءِ مع كون اللَّفْظِ واحدًا في رسم المصحف، ولا يُنَافِي اختلافُهم في كيفيَّة الأدَاء التَّوَاتُرَ؛ إذْ لا يُعَدُّ خِلَافًا في القِرَاءَةِ[7]؛ لأنَّ المخالفةَ المُضْعِفَة للقراءة هي المخالفة المؤدية إلى اختلاف النُّطْقِ بحروف الكلمة. وقد يكون حَذفُ إِحدَى الحروف في رسم المصحف مَنْبَهَةً على اعتِبَارٍ مِنِ اعتِبَارَاتِ الأَدَاءِ لدى القُـرَّاء.

فالأَدَاءُ -إذن- يعني تجويد القراءة، وتصحيح الألفاظ، وإقامة الحروف على الصِّفة المتلقَّاة من أئمَّة القراءة المتصل سندهم بالرَّسول صلى الله عليه وسلم التي لا تجوز مخالفتها، ولا العدول عنها إلى غيرها؛ لكون القراءة سُنَّة مُتبَعَة، ومن ثَم فلا عذر لأحد أن يرتجلَ فيها، وإنْ سـوَّغتْ له العربية ذلك[8].

---

1 المحكم والمحيط الأعظم: ابن سيدة (أدي). لسان العرب: (أدا).

2 الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): الجوهري، (أدا).

3 ينظر: إبراز المعاني من حرز الأماني، ص 253.

4 تاج العروس من جواهر القاموس: (أدّى).

5 الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: 1/156.

6 إبراز المعاني من حرز الأماني، ص 253.

7 التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، 11/163.

8 المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1420هـ- 1999م، 1/292.

ذَكَرَ ابن الجزري أنَّ "لفظة الأَدَاء كثيرةُ الاستعمال بين القُرَّاء، ويعنون بها تأدية القُرَّاء القراءة إلينا بالنقل عمن قبلهم[9]". وترتكز عملية الأداء القرآني على ثلاثة أركان، هي:

- **المنقول:** ويراد به القرآن الكريم. وإطلاق الأداء عليه يشمل أموراً، هي:

أ. ما جاء صحيحًا مستفيضًا متلقًىً بالقبول، ولم يتواتر عن النَّبي، وإن كان يلحق بالمتواتر حكمًا. وهذا الذي اصطلح العلماء على تسميته بـ (الأداء).

ب. التَّفريق حال التِّلاوة بين النَّفي والإثبات، والخبر والاستفهام، ونحو ذلك صعودًا أو هبوطًا[10].

ج. تجويد القراءة.

د. الهيئات الأدائية، كالإشمام في بعض صوره، والسَّكت ونحوها.

- **الناقل:** وهو ما اصطلح العلماء على تسمية بـ (أهل الأَدَاء). ويقصدون بهم أئمة نقل القرآن.

- **المنقول إليه:** وهو المؤدَّى إليه / المتلقي.

يُطلَقُ الأداءُ - إذن - عند القُـرَّاء على أخذ القرآن عن المشايخ.

2. الفرق بين الأداء التِّلاوة والقراءة

- **التِّلاوة:** هي قراءةُ القرآن متتابعًا كالأوراد والأحزاب.

- **الأداء:** هو الأخذُ عن المشايخ.

- **القراءة:** تُطلق على الأَدَاء والتِّلاوة، فهي أعمُّ منهما.

والأَدَاءُ تَجويدُ القراءة، وهو تصحيح الألفاظ، وإقامة الحروف على الصِّفة المتلقَّاة من أئمَّة القراءة المتصل سندهم بالرَّسول صلى الله عليه وسلم التي لا تجوز مخالفتها، ولا العدول عنها إلى غيرها؛ لكون القراءة سُنَّة مُتبَعَة، ومن ثَم فلا عذرَ لأحدٍ أن يرتجلَ فيها، وإنْ سوَّغتْ له العربيةُ ذلك[11].

هذا، وقد ذكر مكي بن أبي طالب القيسي (ت : 734هـ) أنَّ من القُرَّاء: المُعربُ العالمُ بوجوه الإعرابِ والقراءاتِ، العارفُ باللُّغات، ومعاني الكلام، العالمُ البصير بعيب لفظ القراءة، المنتقدُ للآثارِ، فذلك الإمامُ الذي يَفْزَعُ إليه حُفَّاظُ القرآن من كلِّ مِصرٍ من أمصار الإسلامِ. ومنهم مَن يُعرِبُ ولا يَلحَنُ، ولا علم عنده غير ذلك، فذلك كالأعرابي الذي يقرأ بلغته، ولا يقدر على تحويل لسانه، فهو مطبوعٌ على كلامه. ومنهم: مَن يؤدِّي ما سَمِعَه ممَّن أخذَ عنه، وليس عنده إلَّا الأداء لما تعلَّم؛ لأنَّه لا يعرفُ الإعرابَ ولا غيرَه، فذلك الحافظُ، فلا يلبث مثله أن ينسى إذا طال عهدُهُ، فَيُضيع الإعرابَ لشدَّة تشابهه عليه، وكثرة ضمه وفتحه وكسره، في الآيةِ الواحدةِ؛ لأنَّه لا يعتمدُ على علمٍ بالعربيَّةِ، ولا به بصر المعاني يرجع إليه، وإنَّما اعتماده على حفظه وسماعه، وقد ينسى الحافظ فيضيع السَّماعُ، ويشتبه عليه الحروف، فيقرأُ بلحنٍ لا يعرفه، وتدعوه الشُّبهةُ إلى أن يرويه عن غيره، ويُبَرِّئَ نفسَه، وعسى أن يكون عند النَّاس مصدقًا، فيُحمَلُ ذلك عنه، وقد نسيه وأوهمَ فيه، وحبسَ نفسه على لزومهِ والإصرارِ عليه، أو يكون قد قرأَ على مَن نسي وضَيَّعَ الإعرابَ، ودخلتـه الشُّبهَـةُ فتوهَّمَ، فذلك لا

9 إبراز المعاني من حرز الأماني، ص 253.

10 الهادي في معرفة المقاطع والمبادي: الهمذاني، (مخطوط) الكتاب الخامس، الباب الخامس.

11 المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح بن جني، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1420هـ- 1999م، 1/292.

يُقلِّد القراءةَ ولا يُحتـجُّ بنقله. ومِنهم مَن يُعربُ قراءَتَه ويُبصِرُ المعنى، ويعرفُ اللُّغاتِ، ولا علم له بالقراءات واختلاف النَّاسِ والآثار، فربما دعاه بصره بالإعراب إلى أن يقرأَ بحرفٍ جائزٍ في العربيَّةِ، لم يقرأ به أحدٌ من الماضين، فيكون مبتدعًا[12].

ومن ثَم يجبُ لطالبِ القرآنِ ألا يهملَ نفسَه، وينقلَ عمن لا يجب النقل عنه ممن هذه الصِّفات صفته.

3. فلسفة الأداء القرآني

نقصد بـ (فلسـفـة الأداء القرآنـي) طريقـة ترتيل الآي وفقًا للقراءة المُتَبَعة، وما يمكنُ أن يتوافقَ مع القراءات القرآنيَّة الصَّحيحةِ من ظواهر الأداء الصَّوتي من تنغيمٍ، ونبرٍ، وسكتٍ... إلخ. ووقُوفٍ تُعينُ على تأدية المعاني القرآنيَّة أداءً صحيحًا، وهو أَمرٌ ليس موكولًا أو مكفولًا لكلِّ أحدٍ من الناس؛ لأنَّه أمرٌ لا ينهض به إلَّا المهرة من العلماء أهل التَّلقي والرِّواية؛ ولذلك اعتبر أئمة الإقراء أنَّ من تَمامِ مَعرِفَةِ القرآنِ مَعرِفَةَ الوقف والابتداء فيه، فاختاروا "تَبيين معاني كلام اللّه عزَّ وجلَّ، وتكميلَ معانيه، فجعلوا الوقف منبهًا على المعنى، ومفصَّلاً بعضه من بعضٍ، وبذلك تلذُّ التَّلاوةُ، ويَحصلُ الفَهمُ والدِّرايةُ، ويتضحُ منهاجُ الهِدايةِ[13]"؛ لعلمهم " أنَّ بَلَاغَةَ الكلام لَا تَنْحَصِرُ في أحوَالِ تَرَاكِيبِهِ اللَّفْظِيَّةِ، بل تَتَجَاوَزُ إلى الكَيْفِيَّاتِ التي تُؤَدَّى بها تِلْكَ التَّرَاكِيبُ، فَإِنَّ سُكُوتَ المُتَكَلِّمِ البَلِيغِ في جُمْلَةٍ سُكُوتًا خَفِيفًا قد يُفِيدُ مِنَ التَّشْوِيقِ إلى مَا يَأْتِي بعده ما يُفِيدُهُ إبْهَامُ بعض كلامه ثُمَّ تَعْقِيبُهُ بِبَيَانِهِ...[14]"، ومن ثَم اشترطوا على المُجيزِ ألا يُجيزَ أحدًا إلَّا بعد معرفته الَوقف والابتداء[15]؛ لأنَّ ذلك منوطٌ بالفهم، وحسن التلقي عن كتاب اللّه تعالى وإفهام السَّامع المعنى من غيرِ لَبْسٍ أو إغلاقٍ.

ومِمَّا أُثِرَ في ذلك ما رُوِيَ عَن إبْرَاهِيم النَّخعِيّ -رحمه اللّه- أنَّه كان إذا مَرَّ بقوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ** ﴾ (البقرة:611) خفضَ صَوتَه...!![16]. فَمَنْ أراد أن يَقْرَأَ القرآن بكمال التَّرْتِيلِ، فَلْيَقْرَأْهُ على مَنَازِلِهِ، فَإِنْ كان يَقْرَأُ تَهْدِيدًا لَفَظَ به لَفْظَ الْمُتَهَدِّدِ، وَإِنْ كان يَقْرَأُ لَفْظَ تَعْظِيمٍ لَفَظَ به على التَّعْظِيمِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَشْتَغِلَ قَلْبُهُ في التَّفَكُّرِ في مَعْنَى مَا يَلْفِظُ بلسانه، فَيَعْرِفَ مِنْ كُلِّ آيَةٍ مَعْنَاهَا...[17]". وتلك صفة المنتبهين لما يَتْلُون، الذين يُمثلُ الأداء عندهم أحد وسائل تصوير المعني القرآني.

---

12 الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن، ط 1، 1996م، ص 90-92.

13 السَّخاوي، علم الدين علي بن محمد، جمال القرَّاء وكمال الإقراء، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، طبع دار المأمون للتراث، ط 1، بيروت، 1418هـ/1997م، 674

14 التَّحرير والتنوير: 1/117.

15 الإتقان في علوم القرآن: 1/542. وينظر: جمال القرَّاء وكمال الإقراء :671

16 الأمثال من الكتاب والسنة: محمد بن علي الحكيم الترمذي، تحقيق: السيد الجميلي، دار ابن زيدون، دار أسامة - بيروت - دمشق، ص 80. وينظر كذلك: غاية النهاية: ابن الجزري، 1/30

17 البرهان في علوم القرآن: أبو عبد اللّه الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط 1، 1376 هـ - 1957 م، 1/450

الفصل الثاني

أثر الأداء القرآني في توجيه المعنى
(إطارٌ نظري ونماذج تطبيقيَّة)

الفصل الثاني

أثر الأداء القرآني في توجيه المعنى
(إطارٌ نظري ونماذج تطبيقيَّة)

1. أثر الأداء القرآني في توجيه المعنى (إطارٌ نظري)

1.1. مدخل في مفهوم التَّوْجِيه:

- التَّوجيهُ: مصدرٌ للفعل وَجَّهَ، وأصلُه من الوَجْه، ووَجْهُ كُلِّ شيءٍ: مُسْتَقْبَلُه، ووَجْه الكلام السَّبيل الذي تقصده به؛ ولذلك قيل للقَصْدِ جِهَةٌ ووجِهةٌ، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة: 148). وفي حديث أبي الدَّرداء: لا تَفْقَهُ القرآنَ حتَّى ترى للقرآن وجُوهًا، أي ترى له معان يحتملها، فتهاب الإقدام عليه. ويقال: وَجَّهتُ الشيء، أي: أرسلتُه في جهةٍ واحدةٍ فتوَجَّه، وأحمقُ ما يَتَوجَّه به: كناية عن الجهل. ويُقال في التَّحضيض على سبيل ضرب المثل: وَجِّه الحَجَرَ وِجْهَةً ما له، أي ضعه على وجهه اللائق به، إذْ يُضرب مثلاً للأمر إذا لم يستقم من جهةٍ أن يُوجّه له تدبيرًا من جهة أخرى، وأصل هذا في الحَجر يُوضع في البناء فلا يستقيم، فينقلبُ على وَجْهٍ آخر، فيستقيم، وكسَاءٌ مَوَجَّهٌ: أي ذو وجهين[1].

- والتَّوْجِيه في البلاغة هو: أن تحتمل الكلمة معنيين، فيستعمل المتكلِّمُ أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمل لا ما استعمله[2].

وتعدُّ قضية توجيه المعنى في النَّص القرآني من أخطر القضايا في تاريخ الفكر الإسلامي بأجمعه؛ لما نتجَ عنها من فرقٍ وخلافات مَذهبيَّة تعاملتْ مع النَّص القرآني تعاملًا بعيدًا عن الموضوعية، فمنهم مَنْ يرون أنَّ لكلِّ آيةٍ ظاهرًا وباطنًا[3]. ومنهم مَن غالوا في القول بالمجاز[4].

ويشرقُ وسطَ هذا الغيم الكثيف منهجُ أهل السُّنَّة الذين يؤمنون بأنَّ القرآن لا يخضع للمذاهب والأهواء، فهو ليس انعكاسًا للعقل ولا للظروف التاريخية بكل ملابساتها، وإنَّما هو نصٌّ خالقٌ معناه، خَلْقًا لا يستوي إلَّا في أعين مَنْ أخلص له واهتدى بهداه، وتهيأ للتَّلقي عنه.

1 ينظر: مادة "وجه" في المفردات في غريب القرآن، ص 529. وإصلاح المنطق : ابن السِّكيت، دار المعارف، ط 4، بدون تاريخ، ص 315. ولسان العرب: ابن منظور المصري، مادة (وجه). وبصائر ذوي التمييز، جـ 5 /167. ومعجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1983 - 1987م، جـ 2 /379، وما بعدها.

2 تحرير التحبير: ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1416هـ - 1995م، ص 268. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، جـ6/81. والتعريفات، ص97.والتَّوْجِّه في الشعر: الحرف الذي بين ألف التأسيس وحرف الروِّ.

3 راجع: كثيرًا من شططهم في الكتب الآتية: تفسير القرآن العظيم: للتستري، تحقيق: طه عبد الرؤوف وسعد حسن محمد علي، دار الحرم للتراث، القاهرة، ط1، 1425هـ - 2004م.

تفسير القشيري، (لطائف الإشارات)، تحقيق: الدكتور إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة، 2001م. وينظر: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1357هـ/1939م.

4 الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم الظاهري، مطبعة العاصمة، القاهرة، بدون تاريخ، 1/ 44.

2.1. أثر الأداء القرآني في توجيه المعنى

1.2.1. مفهوما التَّرتيل والتَّنغيم:

التَّرتيلُ: هو قراءةُ القرآن على المُكْثِ الذي يُضاد العجَلَة، فالتَّرتيلُ في اللُّغة التَّمهلُ، قال تعالى : ﴿ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** ﴾ (الفرقان: 32)، وقال سبحانه: ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ (المزمل: 4)، أي: اقرأه متمهِّلًا، حتَّى تفصِّلَه وتبيِّنَه؛ ليجدَ الفكرُ فسحةً للنظر وفهم المعاني؛ ولذلك قال ابن كيسان في معنى ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾، أي: تَفَهَّمه تَاليًا له. وقد رُوي أنَّ قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كانت بيِّنة مرسلة، لو شاء أحدٌ أن يَعدَّ الحروف لعدَّها[5].

وتدخل كُلُّ ظواهر الأداء الصَّوتي من تنغيم، ونبرٍ، ووقفٍ وسكتٍ، إلخ، في مفهوم التَّرتيل بمعناه الواسع.

أمَّا التَّنغيم: Intonation فمأخوذٌ من النَّغْمَة، وهي: جَرْسُ الكلمة وحُسْنُ الصَّوت في القراءة وغيرها، وقيل النَّغْمَةُ: الكلامُ الحَسَنُ، وقيل: الكلامُ الخَفِي، والجمعُ نَغَمٌ. والنَّغَمُ: الكلام الخفي[6]. ونستنبطُ من هذا المعنى اللُّغوي للنغْمة أنَّ التَّنغيم، هو إحداث نَغْمة (جَرْس موسيقي) معينة في الكلام؛ بقصد الدلالة على المعنى الذي يرمي إليه المتكلم، كأن يكون هذا المعنى هو السُّؤال، أو التَّعجب، أو الإنكار، أو السُّخرية أو الإخبار... إلخ، وذلك عن قصدٍ من المتكلم وعَمْدٍ منه في إخراج النغْمة (جرس الصَّوت) المخرجَ الذي يتوافق مع المعنى المراد التَّعبير عنه، وهو ما تُشير إليه بنية مصطلح التَّنغِيم (طريقة الأداء الصَّوتي للكلام) Intonation التي جاءتْ على وزن (تفعيل) مثل تغيير وتنظيم، إلخ.

وقد سألني بعض الطلاب الناطقين بغير العربية هذا السؤال:

لماذا نرتل القرآن؟ وهل ترتيله أمر مهم؟

وهو سؤال له وجاهته بالتأكيد!، سوف نبسط الإجابة عنه في ثنايا هذا الكتاب، وما ينبغي أن نذكره -هاهنا- هو: أنَّ الأداءَ الصَّوتي أحد وجوه الحُسْن في الكلام الملفوظ لدلالته المباشرة على المعاني المرَادَة فيه، ليزولَ الإبهام عن السَّامع في بعض المواضع التي قد تحتمل أكثر من معنى، وهذا ما سوف نبسط القول فيه لاحقًا.

2.2.1. مفهوم التنغيم ووظائفه

التَّنغِيم اصْطِلاَحًا[7] يعني مجموع التَّغيرات التي تَحدثُ في درجة نغمة الصَّوت في الكلام والحديث المتواصل، التي تنشأ نتيجةً لتذبذب الأوتار الصَّوتيَّة[8]، ولعلَّ أول مَنْ نبَّه إلى مصطلح التَّنغيم

5 ينظر: معاني القرآن، ج3/197. وزاد المسير، ج 6 /15. والمحرر الوجيز، ج 5 /387. والبحر المحيط، ج6 /455.

6 ينظر: لسان العرب، مادة (نغم).

7 تَرجمَ الأستاذ منير البعلبكي مصطلح Intonation بمعنى التَّنغيم، والتَّرتيل، والتَّجويد. ينظر: قاموس المورد، دار العلم للملايين، ط29، بيروت، لبنان، 1995م، ص477.

وينظر كذلك: قاموس المورد: ص 477. وكذلك: أسس علم اللغة، مَاريو بأي، ترجمة وتعليق الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط 2، 1419هـ - 1998م، ص112-113. وكذلك: علم اللغة العام، د. محمد توفيق شاهين، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط 1، 1400هـ - 1980م، ص 112، 113.

8 Jones, Daniel. An Out Line of English Phonetics, p. 275 Cambridge 1967

وراجع كذلك : Nouveau Larousse Universal " 1 " pe 1008

.Dictionnaire Encyclopédique En Deux Volumes Paul Auge Tone. Premier, Paris Librairie Larousse Copyright 1948

وينظر كذلك: قاموس المورد: ص 477. وكذلك: أسس علم اللغة، مَاريو بأي، ترجمة وتعليق الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط 2، 1419 هـ - 1998م، ص 112 - 113. وكذلك: علم اللغة العام، ص 112، 113.

Intonation في الدَّرس اللُّغوي العربي الحديث الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (الأصوات اللُّغويَّة)[9]، وإنْ لم يضع له حدًّا.

ويُعرِّفُ الدكتور تمَّام حسَّان التَّنغيمَ، بأنَّه تغيراتٌ تنتابُ صَوتَ المتكلِّم من صعود وهبوط؛ لبيان مشاعر الفرح، والغضب، والإثبات، والتَّهكم، والاستهزاء، والاستغراب[10]. إلَّا أن التَّنغيم يتعدَّى ذلك؛ ليشمل أيضًا كلَّ ما يختصُّ بالنُّطق من وقفٍ، وسكتٍ، ونبرٍ ووصلٍ، ومدٍّ... إلخ[11].

كيف يمكن للأداء توجيه المعنى في النَّص القرآني؟

أصبح التَّنغيم - بوصفه طريقة الأداء الصوتي- أحد أهم مصطلحات علم الأصوات Phonetics ليس فقط لما يُحدثُه من تغيراتٍ في درجة الصَّوت، بل لما يؤديه من وظائف أدائيَّة ودلالية تُعينُ على الوقوف على المعاني المختلفة دون لَبْسٍ في فهم المعنى، فيدرك السَّامع بسببه الفرقَ بين الخبر والإنشاء، والجدّ والهزل، والإغراءَ والتَّحذير... إلخ، ويقفُ على المحذوف من الكلام بوصفه - أي التَّنغيم - قرينةً لفظيةً تدخل في جملة قرائن الأحوال.

وقد نبّه ابن جنى (ت: 392هـ) إلى هذا في قوله: " كان واللّهَ رجلاً!، فتزيد في قوة اللَّفظيَّة بـ " واللّهَ " هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط الكلام وإطالة الصَّوت بها، وعليها، أي: رجلاً فاضلاً، أو شجاعًا، أو كريمًا، أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانًا!، وتمكِّن الصَّوت بــ (إنسان) وتُفخِّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سَمْحًا، أو جَوادًا، أو نحو ذلك...[12]".

وتدلُّ هذه الملاحظة الذكيَّة من ابن جني على إدراك اللُّغويين العرب أهمية التَّنغيم في الكلام الملفوظ؛ بوصفه أحد القرائن اللَّفظيَّة التي يتوقف عليها في أحايين كثيرة فهم المعاني المختلفة في الكلام المنطوق؛ كأن يُشعرك التَّنغيم بالسُّؤال في موضع، ويُشِعرك بالإخبار في موضع آخر.

ويُعدُّ فقدان النَّغمة في الكلام المكتوب أحد أسباب تعدد الأوجه الإعرابية في الجملة الواحدة، ومن ذلك قول اللّه تعالى في سـورة يوسف عليه السَّــلام: ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ (يوسف: 65).

اختلف سادتنا المفسرون والمعربون لكتاب اللّه تعالى في نوع (ما) في هذه الآية المباركة: أ هي استفهامية أم نافية؟ يقول الفرَّاء - رحمه اللّه - (ت :207هـ)، وقوله: (ما نبغي) كقولك في الكلام: ماذا نبغي؟، كأنَّهم طيَّبوا نفسَه. و(ما) استفهام في موضع نصب، ويكون معناها جَحدًا، كأنهَّم قالوا: لسنا نريد منك دراهم[13].

وقال الزَّجَّاج: (ما نبغي) أي: ما نريد؟، و(ما) في موضع نصب، والمعنى: أيُّ شيءٍ نريد، قد رُدَّتْ علينا بضاعتنا، ويجوز أن يكون (ما) نفيًا، كأنهَّم قالــوا: ما نبغـي شيئًا[14]" قد يؤدي فقدان النغمة في هذه الآية المباركة - حال كونها مكتوبة - إلى تعدد وجوه إعرابها، ذلك؛ لأنَّها قد تُقرأ على نغمة الاستفهام،

9 ينظر: الأصوات اللُّغوية: إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو المصرية ،1961م، ص 124.

10 مناهج البحث في اللغة: تمام حسَّان، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1974، ص 164. وينظر كذلك: البيان في روائع القرآن، ص 232.

11 الوقفُ: عبارة عن قطعُ الصَّوت على الكلمة زمنًا يُتنفسُ فيه عادة بنية استئناف القراءة.
- السَّكتُ: قطعُ الكلمة من غير تنفسٍ بنية القراءة .ينظر: النشر في القراءات العشر: جـ 1 /334. والأسرار الدلالية لعلامات الوقف اللازم والممتنع في القرآن، د. عبد الفتاح إبراهيم، ص 15.
- النبر stress: هو قوة اللَّفظ النسبية التي تُعطى للصائت في كل مقطع من مقاطع الكلمة أو الجملة، أو هو الوضوح الصَّوتي (السَّمعي) لمقطع من مقاطع الكلمة أكثر من غيره، ينظر: في علم اللغة، د. توفيق محمد شاهين، ص 113.

12 الخصائص، أبو الفتح بن جني، تحقيق: محمد على النجار، دار الكتب المصرية، 1952، جـ2/370 -371، وص269. وينظر: مثل هذه اللفتات الذكية في كتاب -شرح المفصل: ابن يعيش، جـ 2 /13 وما بعدها، حيث تحدَّث عن "واو الندبة" ودلالة رفع الصَّوت بها ومدِّه عند النطق بها؛ لإسماع جميع الحاضرين؛ إظهارًا للتفجع والحزن، وكذلك التعويل على التنغيم في تحديد أسلوب الإغراء من أسلوب التحذير كما في قولك: "الرجلَ الرجلَ".

13 معاني القرآن، جـ 2 /49.

14 معاني القرآن وإعرابه، جـ3 /96. وينظر كذلك: المحرر الوجيز، جـ3 /260.

وقد تُقرأ على نغمة النَّفي، ولا شك أنَّ هنالك فرقًا بين النّغْمتين، فالمعوّل على تحديد وجه الإعراب فيها نَغْمةُ القراءة الملفوظة التي هي قرينـة لفظية حالية توجِّــه المعنى في الكـلام وجهة بعينها[15].

ومثلُ هذا التَّعدد في الوجوه الإعرابية للآية الواحدة في كتاب الله تعالى كثيرٌ، وذلك إذا ما نظرنا إليه بوصفه نصًّا مكتوبًا، فهو مُفتقدٌ في حال كتابته إلى التَّنغِيم الذي يُعوَّل عليه في توجيه المعنى، وتحديد دلالة الألفاظ المنطوقة، أمَّا إذا نظرنا إليه بوصفه نصًّا شفاهيًّا ملفوظًا[16]، فإنَّ مَن يستمع إليه يستطع أن يدرك - هنالك - ويحدد المعنى في الآيات المقروءة الملفوظة إلى حدٍّ بعيد؛ لا سيَّما إذا استمعه من القرَّاء المهرة أصحاب صحة الأداء؛ فيقف فيها على الخبر ويفصله عن الإنشاء، ويقف على التَّعجب، فيفصله عن الاستهزاء، ويفرّق بين النَّفي والسؤال، والدُّعاء والرجاء، والتعجب والإنكار... إلخ.

إنَّ التركيز على صفة المشافهة واعتبارها في النَّص القرآني يُجلِّي لنا كثيرًا من معانيه التي قد تشتبه علينا إذا ما نظرنا إليها في النَّص المكتوب؛ ذلك أنَّ المشافهة تفسحُ المجال أمام كثيرٍ من طُرق الأداء الصَّوتي مثل النَّبر Stress وتنغيم الكلام، والفصل، والوصل... إلخ، للدلالة على المعاني المختلفة في النَّص المنطوق، والوقوف على معنىً بعينه، وبخاصّة في المواضع التي تتعددُ فيها الأوجه الإعرابية، لا سيَّما أنَّ المستوى الصَّوتي هو أول المستويات التي تهتم بها اللُّغــة، بوصفها أصواتًا يُعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم[17].

فقد يكون التَّنغيم أحد مؤكِّدات المعنى في الكلام الملفوظ، وأهم عوامل إيضاحه، لا سيَّما إذا انضاف إليه النَّبر Stress الذي يَعنى الوضوح والنصوع الصَّوتي لمقطع من مقاطع الكلمة أكثر من غيره[18]، كما قد تكون طريقة الأداء الصَّوتي للآيات القرآنيَّة مثل بعض الوقفات القصيرة ذات القيم التعبيرية الدالة على التأسف، أو الحزن، و(الوقفة الختاميَّة) الدالة على ختام القراءة.

ويظهرُ هذا الأداءُ الصَّوتي الذي يُعطي للصائت في أحد مقاطع الكلمة عنـد القُرّاء المَهـرَة الذين يتلـونَ كتابَ الله حقَّ تلاوته، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة الصَّوتيَّة عند النطـق بـ (الواو) المشـدَّدة المضموم أو المفتوح ما قبلها، كما فــي كلمة (قوَّامين) في قوله تعالى: ﴿ **كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ** ﴾ (النساء: 135).

وكذلك عند الانتقال من حرف مدٍّ إلى حرفٍ مشدَّدٍ، ويظهر ذلك في المد اللازم الكلمي المُثقَّل، وهو كثيرٌ في كتاب الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ **الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة** ﴾ (الحاقة: 1-3)، ففي هذه الكلمات ومثيلاتها عندما تُتلى - وهذا واجب- بمدٍّ لازم ست حركات، نشعر بتمثُّلِ هيئة المعنى من خلال هذه الاستطالة التي ينتجها المدُّ اللازم، وكأنَّه - فضلًا عن علله الصَّرفيَّة من منع التقاء الساكنين، وتسهيل التلفظ- تعطي مُهلةً للقارئ والسَّامع على حدٍّ سواء؛ لاستحضار وتأمل دلالة اللَّفظ، فضلًا عن كونها أحد محسِّنات الجَرْس وتوفية الصَّوت[19]. فعندما نتلوا مثلًا قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ** ﴾ (النازعات: (34)، فنُمَكِنَ المدَّ في ستَ حركات؛ متابعةً للأداء القرآني الصَّحيح

15 ينظر: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،2001م، ص 296. كذلك: مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسَّان، ص 164. وكذلك: مدخل إلى علم لغة النَّص، د. إلهام أبو غزالة، وعلى خليل أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1999م. ص 49 وما بعدها.

16 والأصل في القرآن الكريم المشافهة؛ لأنَّ النبي - صلى الله عليه وسلَّم- تلقاه عن جبريل - عليه السلام- مشافهةً، وتلقاه عنه صحبه الكرام - رضي الله عنهم - مشافهةً كذلك، إذْ لم يُدَوَّن إلاَّ في عهد الصديق أبى بكر -رضي الله عنه - بمشورة من الفاروق عمر - رضي الله عنه - لمَّا استحرَّ القتل في حُفَّاظ القرآن الكريم يوم اليمامة.

17 رَتَّبَ علماء اللُّغة المستويات البحثية على هذا النحو: المستوى الأول: المستوى الصَّوتي.
المستوى 2: المستوى الصَّرفي. المستوى 3: المستوى النحوي. المستوى 4: المستوى الدلالي.

18 ينظر: في علم اللغة العام، د. توفيق محمد شاهين، ص 113.

19 ينظر: الخصائص، 3/126.

والقراءة المُتبَعَة، ندرك عندها استطالةً في دلالة الطَّامَّة، فهي موصوفة بأنها (طامة)؛ لكونها تأتي على كلِّ شيء، ويدلَّ على ذلك كميَّة المد في ألف الطَّامَّة[20]. هذا، مع ملاحظة أن تلاوة الآيات القرآنية مرتبطة بسياقاتها النَّصية ومقاصد الخطاب القرآني من حيث تحقيق الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب...، والمدُّ وتمكين الصَّوت عند العرب من وجوه المبالغة في أداء المعنى، ألا ترى أنَّهم قد يلحقون "آخر الاسم المدَّ مبالغةً في التَّرنم[21]". ومن هذا القبيل هاء السَّكت في قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ** ﴾ (الحاقة: 25-29) ، فجاءت الهاء في لتبين بها الحركة، وتتمكن في النُّطق حال الوقف[22]، لا سيَّما أن سبقتها حروفُ المَدِّ التي تتصف بالضَّعف. هذا، فضلًا عن مشاكلة الصَّوت - هاهنا- لمقام نَعي النَّفس.

ويمكن ملاحظة مثل هذه الظَّواهر الصَّوتيَّة في الجُمل عندما يضغط القارئ على كلمة بعينها في إحدى الجمل المنطوقة، عنايةً منه بها، ولفتًا إليها؛ لمعنىً يُراد القصد إليه من خلالها، حتَّى تصير هذه الكلمة هى محور المعنى في الجملة المنطوقة، ومركز الدلالة فيها، فيتجه المعنى من خلالها وجهة بعينها.

ومن ذلك قولـه تعالى يقصُّ علينا من أحـوال الكافرين يوم القيامة، وما يعتصرهم فيه من ندمٍ عاصف: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠** ﴾ (الأحزاب: (66-67)، ففي هاتين الآيتَيْن الكريمتَيْن نلاحظ بروزَ بعض أجزاء سلسلة الأصوات على حساب الأجزاء الأخرى، حيث تميّز النطق بالمقطع الأخير في نهاية كلِّ آيةٍ في قوله تعالى: (**بي – ثم**)، فانطلقتْ أصوات هذا المقطع الأخير بمزيد من القوة، حتَّ أصبحت أكثر إسماعًا ووضوحًا في السمع من غيرها من المقاطع الأخرى؛ نتيجة لإشباع الفتحة والنطق بها ألفًا، ليطول النَّفَسُ بها كما يطول في كلام المتأوِّه الشَّاكي الذي تعتصره الحسرة والندم.

وهكذا نجد طريقة الأداء الصَّوتي في المقطع الأخير في كلِّ آيةٍ تأتي مؤكِّدةً وموضحةً للحالة النفسيَّة التي عليها أهل النَّار في نارهم.

وكذلك الحال في آيات القَسَمِ في كتاب الله تعالى، وفي آيات الوَعد والوَعِيد تجد التَّرتيل ذا أثر مهم في تحديد المعاني والدلالة على المقام، إذْ يُعدُّ التَّنغِيم مـن الظَّواهر الصَّوتيَّة التي يتطلبها المقـام، وتدخل ضمن مراعاة مقتضى الحال[23]؛ ولذلك اهتمَّ علماء القراءات بطريقة الأداء الصَّوتي في قراءة القرآن الكريم، فحددوا طُرقًا لقراءته وضوابطَ لتلاوته يُراعى فيها " إعطاء كل حرف حقَّه من إشباع المدّ وتحقيق الهمز وإتمام الحركات واعتماد الإظهار والتشديدات، وتوفية النغمات، وتفكيك الحروف، وهو بيانها وإخراج بعضها من بعض بالسَّكت والتَّرسل واليُسر والتُّؤدة[24]"، كما يُراعى فيها تصحيح الوقف والابتداء، وذلك بالعلم بمواضع الفَصْل والوَصْل.

وهكذا تبدو أهمية الأداء في كَوْنه طريقة في الأداء الصَّوتي دالة على المعاني في الكلام المنطوق معبِّرة عن مقاماته.

20 ينظر: القيمة الدلالية لصوت المد في القراءات القرآنية، كمال أحمد المقابلة، المنارة، المجلد 17، العدد 2، 2011م، ص 46.

21 الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988 م، 2/231.

22 ينظر: المقتضب: أبو العباس، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق، محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، 4/248.

23 ولعل من أفضل مَنْ راعى تلاؤم الأداء الصَّوتي مع المعنى والمقام من قُرَّاء القرآن في العصر الحديث فضيلة المرحوم الشيخ محمد صديق المنشاوى -رحمه الله تعالى- فلا تشذُّ نغمة الصَّوت عنده عن مقام الكلام ومعناه، فقد كان -رحمه الله تعالى- يقرأ القرآن على بصيرة بفقه التلاوة، وبإخلاص لله تعالى، فلعلمه أن القرآن رسالة الله إلى الناس فقد اجتهد في تبليغه للناس على النحو الذي أراده الله تعالى مخلصًا في ذلك الإخلاص كله، فرحمه الله رحمة واسعة.

24 النشر في القراءات العشر، ج1 /293.

وطبَعي أن تختلف هذه الطَّريقة في الأداء الصَّوتي باختلاف معاني الكَلِم ومقاماته؛ فطريقة الأداء الصَّوتي لأسلوب السُّؤال مثلًا تختلف - ولا ريب - عن طريقة الأداء الصَّوتي للدُّعاء، تختلف عن طريقة الأداء الصَّوتي للأمر... وهكذا، بل إنَّ الأسلوبَ الواحد نفسَه في طبقات من ذلك، فنغمة السُّؤال الإنكاري تختلف عن نغمة السُّؤال التَّقريري، وتختلف عن نغمة السُّؤال التَّعجبي أو هكذا يجب أن تكون؛ ذلك لأنَّ التَّرتيل نفسه في طبقات[25]، كما أنَّ الكلام نفسه في مقامات، فإذا كان لكلّ مقامٍ مقال، فإنّ لكل مقال طبقته الصَّوتية التي تناسبه.

وهذه أمور يجب أن نفقهها ونجعلها على ذُكْرٍ منَّا ونحن نتلو كتاب الله تعالى، فنوفيه حقَّه في التَّرتيل، فنعلم متى نفصلُ الكَلِمَ ومتى نصلُه، وكيف يتوافق الأداء الصَّوتي مع مواضع الفَصْل ومواضع الوَصْل، وسياق الآيات، ومقامات المعاني ومقاصد الخطاب القرآني، حتَّى نكون ممن يتلون كتاب الله تعالى حق تلاوته، ومن حق تلاوته ترتيله : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ (المزمل: 4).

وهذا الأمر وإنْ بدا سهلاً ميسورًا، فليس هذا البَداء إلَّا من خُدَعِ النفس وغرورها؛ ذلك لأنَّه شأن لا ينهض به على النَّحو الواجب إلَّا مَنْ رُزِقَ إخلاصًا لكتاب الله تعالى، وأُوتِيَ حظًّا عظيمًا من الذَّوق الرفيع والحسِّ المرهف اللذَيْن يسمحان له بمعايشة ما يقرأ، وإنَّما يُؤتَى ذلك من طول مصاحبة آداب القوم والبصر بأساليبهم في البيان وطرائقهم في التَّعبير، فيُعلَم معه كيف يصدرونه، فينمو الإحساسُ في نفسه بمعاني الكَلِم، فيجيء كلامه منغّمًا مرتَّلًا طَوعًا أو كَرْهًا؛ فما كان منه طَوْعًا أتاه من جهة طبعه الصَّافي وذوقه الرَّاقي، وما كان منه كَرْهًا أتاه من جهة خبرته وبصره بدلالات الأساليب ومعاني الكَلِم ومقاماته.

وأُوصِي في هذا السِّياق بضرورة تدريب النَّشْء المسلم الناطقين بالعربية، وغير الناطقين بها على إدراك الفروق بين دلالات الأساليب والملاءمة بين المعاني والمقامات، والنُّطق باللَّفظ الواحد على أنحاء مختلفة من الدلالات والمعاني تنميةً لمهارة القراءة لديهم، وغرسًا للإحساس بمعاني الكَلِم في نفوسهم، وإدراكًا لطاقات لغتهم التَّعبيريَّة، فهذه أحد السُّبل المهمة إلى تلاوة كتاب الله تعالى حق تلاوته، وإلى الاتصال بمَعدِن الإعجاز بالوقوف على معانيه.

وإذا أمعنا النظر في كتاب الله وجدنا فيه مواضعَ هي أمسُّ رحمًا بدرس التَّرتيل، لا سيَّما ما اتصل منها بدرس الفَصْل والوَصْل، هذه المواضع قد لا يقوم عليها دليل - في النَّص المكتوب - إلَّا من جهة النظر في الإعراب والقراءات القرآنيَّة، والنَّظر في مدى قبول المقام لتعدد المعنى، في حين أنَّ هذه المواضع نفسها يقوم عليها دليل - في النص المنْطوق - من جهة النَّغمة التي تُعدُّ قرينة لفظية صريحة في الدلالة على المعنى، وبذلك نكون أمام وظيفتين:

- **الوظيفة الأدائيَّة:** يتمُّ بها نطق الآيات في كتاب الله تعالى، وفقًا لطُرق الأداء الصَّحيح في العربيَّة، وحسبما يقتضيه العرف عند أهلها.

- **الوظيفة الدلالية:** تتمُّ بها معرفة المعاني المختلفة في المقامات والسِّياقات المختلفة في كتاب الله تعالى، وهاتان الوظيفتان متلازمتان متكاملتان.

وهكذا يُمَثِّلُ الأداءُ في تلاوة كتاب الله تعالى أحدَ العوامل المؤثِّرة في توجيه المعنى وإفهامه، بوصفه قرينةً صوتيَّةً يُعوَّلُ عليها في فهم النَّص القرآني المرتل، وهو من هذه الجهة أيضًا يُعدُّ أحد أسباب الفَصْل والوَصْل على اختلاف مواضع كل منهما وفقًا لما يقتضيه المعنى وتتطلبه الدلالة.

25 فقد تعلو طبقة الصوت أو تنخفض أو تتوسط وفقًا لمعاني الكلم ومقاماته.

والأداء القرآني بهذا المفهوم ليس ظاهرة صوتيَّة غير منضبطة يعمد إليها كلُّ مَن يريد، وإنَّما هو ظاهرة صوتية شديدة التنظيم والتوافق مع المعنى الأساس في النَّص القرآني، حيث لا تهمِّشه ولا تلغيه لحساب معنىً فرعي يلوح لك من بعيد، كأنَّه طيف يعجزك أن تقبض عليه، فلا ينبغي أن نترك المعنى الظاهر ونبحث عن الباطن الذي لا يكون إلَّا باعتساف النَّص في أغلب الأحيان.

هذا، وقد حدَّدَ علماء الأصوات أنواع النغمات في الكلام، وهو ما يطلق عليه محسن التنغيم اللحني الذي ينشأ عن وقفات أو فواصل نغمية صاعدة، لها في الغالب القدرة على إحداث تأثيرات عاطفية إيجابية أو سلبية...[26]، فجعلوها مستويات، وجعلوا لكل مستوى منها المقام الذي يلائمه، وهذه المستويات هي:

- **النغمة المنخفضة:** وهي أدنى النغمات وهي ما تُختم به الجمل الإخبارية عادة والاستفهامية التي لا يُجاب عنها بـ "لا" أو "نعم".
- **النغمة العادية:** وهي التي يبدأ الكلام بها ويستمر على مستواها من غير انفعال.
- **النغمة العالية:** وهي التي تأتى في نهاية الكلام متبوعة بنغمة منخفضة أو عالية مثلها.
- **النغمة فوق العالية:** وهي التي تأتى مع الانفعال أو التعجب أو الأمر[27].

2. أثر الأداء القرآني في توجيه المعنى (نماذج تطبيقية)

سوف نعرض في هذا الفصل للتحليل الصَّوتي لبعض الآيات القرآنيَّة التي يتضح فيها أثر الترتيل في توجيه المعنى، وذلك من خلال استخدام برنامج محلل الصَّوت Speech Analyzer.

1.2. النموذج الأول

من المواضع التي يمكن أن يكون لنغمة الترتيل فيها أثر في أداء المعنى قول الله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: 124)، فالوقفُ على قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فيما أرى - هو من مقتضيات تتميم وتحسين المعنى؛ لكونه محتملًا لدلالتين، هما: الدُّعاء، والسُّـؤال. فإمَّا أن يكون المقام مقام دعاء ومسألة وتضرع من إبراهيم -عليه السَّلام- إلى الله تعالى أن يجعلَ من ذريته إمامًا. وإمَّا أن يكون المقام مقام استفهام، حيث يستفهم إبراهيم -عليه السَّلام- ربَّه: وهل تجعل يا رب من ذريتي إمامًا أيضًا؟

والنظرُ في إعراب الآية المباركة ينسجمُ انسجامًا كبيرًا مع ما يحتمله المقامُ من الدُّعاء والاستفهام، وهو ما أجمعَ عليه جمهور المفسرين؛ يقول ابن عطية (ت : 549هـ) وقوله تعالى: (وَمِن ذُرِّيَّتِى) قيل: "هذا منه على جهة الاستفهام عنه، أي: ومِن ذريتي يا رب ماذا يكون؟[28]". أو ومِن ذريتى أيضًا يا رب يكون إمامًا للناس؟ وقيل: ربِّ (وَمِن ذُرِّيَّتِى) على المسألة[29]"، أي: على الدُّعاء، والمعنى: واجعل يا رب من ذريتى إمامًا. فقد "يستغنى عن أداة النداء بقرينة قصده ونغمته[30]".

26 ينظر: موسوعة البلاغة: تحرير: توماس أ. سلوان، ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016م، ج2/ 633.

27 تأثير الأداء الصَّوتي على الدلالات والمعاني، ابتهال الباز، مجلة أهلًا وسهلًا، السعودية، 2006

28 المحرر الوجيز، ج1/206، وينظر كذلك: أحكام القرآن، 1/85. وتفسير الماتريدى، جـ 1 /279، والبحر المحيط، ج1 /549، والدر المصون، ج1 /101، والقرطبى، ج2 /113، وابن كثير، ج1 /167.

29 ينظر: تفسير ابن عباس، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1412هـ - 1992م، ص 22. ومعاني القرآن للفراء، ج1 /76. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، ج1 /180. وتفسير ابن أبي حاتم، ج1 /364. وإعراب القرآن للنحاس، ج1 /258-259. وتفسير السمرقندي، ج1 /156. ومعالم التنزيل للبغوي، ج1 /146. وتفسير الجلالين، ص26. والدر المنثور، ج2 /288.

30 اللغة العربية معناها ومبناها: 220.

وإذا قَبِلَ المقامُ تعددَ المعنى، وصحَّ ذلك من جهة الإعراب، صحَّ كذلك من جهة القراءة / التَّرتيل، فجازَ للقارئ أن يقرأ على نغمة الدُّعاء والمألة، وجازَ له كذلك له أن يقرأ على نغمة الاستفهام. والآية على هذا من مواضع الفَصْل في كتاب الله تعالى، سواء أحُمِلتْ على الاستفهام أم على الدُّعاء؛ ذلك لأنَّ الاستفهام فيها استفهام حقيقيٌّ يقتضي طلب الفهم؛ ولذلك فإنَّ المستفهم هنا، وهو إبراهيم منتظر الإجابة عن سؤاله، طلب فهمه: " فالاستفهامَ استخبارٌ، والاستخبارُ هو طَلَبٌ من المخاطب أن يُخبِرَك[31]".

وهو ما يقتضي فصل السؤال عن الإجابة: ثمـ جحـ جمـ حجـ × لأنَّ المعنى في إدخالِك حرف الاستفهام على الجملة من الكلام، هو أنَّك تَطلبُ أن يَقِفَكَ في معنى تلك الجُملةِ ومؤدَّاهَا على إثباتٍ أو نفي، فإذا قلتَ: "أزيدٌ منطلق؟"، فأنت تطلبُ أن يقول لك: "نعم، هو منطلق"، أو يقول: "لا، ما هو منطلق". وإذا كان ذلك كذلك، كان محالاً أن لا تكون الجملةُ إذا دخلَتها همزةُ الاستفهام استخبارًا عن المعنى على وجه لا تكون هي إذا نزعت منها الهمزة إخبارًا به على ذلك الوَجه[32]". والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصَّوت[33]، فتَحْذِفُ أَلِفَ اِلاِسْتِفْهَامِ قَالَ أَبُو خِرَاشٍ:

رَمَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَمْ تُرَعْ فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهَ هم هم

أَيْ: أَهُمْ هُم[34]".

كما أنَّ الدُّعاء يقتضي كذلك الفَصْل بين المسألة أو الطلب وانتظار الإجابة إليه. ويبقى أن نعلم كيف يكون الأداء/ التَّرتيل في مثل هذا الموضع من كتاب الله تعالى.

حدَّدَ علماء تحليل الكلام نغمات صوتية أو قل طبقات أو مقامات تناسب كلُّ نغمةٍ منها أسلوبًا أو نمطًا معينًا في الكلام له دلالة محددة، فالكلامُ الدال على الانفعال: كالتَّعجب أو الأمر... تناسبه النغمة فوق العالية، في حين أن الكلام الذي تختم به الجُمل الإخبارية والاستفهامية التي لا يُجاب عنها بـ "لا" أو "نعم" يجيء منخفض النغمة، أمَّا الاستفهامية التي يُجاب عنها بـ "لا"، أو " نعم" في الغالب، فينشأ عنها نغمة صاعدة في نهاية الجملة.

أمَّا الكلام الذي يُبتدأ به بداية هادئة ويستمر على هذا النَّمط حتَّى نهايته، فتجيء نغمته عادية متوسطة لا تُوصف بالعلو ولا بالانخفاض، وهكذا[35].

على أن الأداء في مثل هذه المواضع من كتاب الله تعالى أمرٌ لا ينهضُ به إلَّا الرَّاضة المحققون من القُـرَّاء العلماء أصحاب السند العالي، المعروفين بفقه التلاوة والإخلاص لكتاب الله تعالى، لما يحمله الترتيل نفسه من تعقيد شديد بوصفه طريقةً مخصوصة في الأداء الصَّوتي تشتمل على النبرات والفواصل الصوتية والسكتات والحركات التي يُنطق بها الكلام وتتميز دلالاته.

وفيما يلي عرض لنتائج التَّحليل الصَّوتي لقوله تعالى: (وَمِن ذُرِّيَّتِي) منغَّمًا على الاستفهام مرَّةً، وعلى المسألة والدُّعاء مرة أخرى بصوت فضيلة العالم الثبت محمد عبد الحميد عبد الله خليل[36].

31 دلائل الإعجاز: 140.

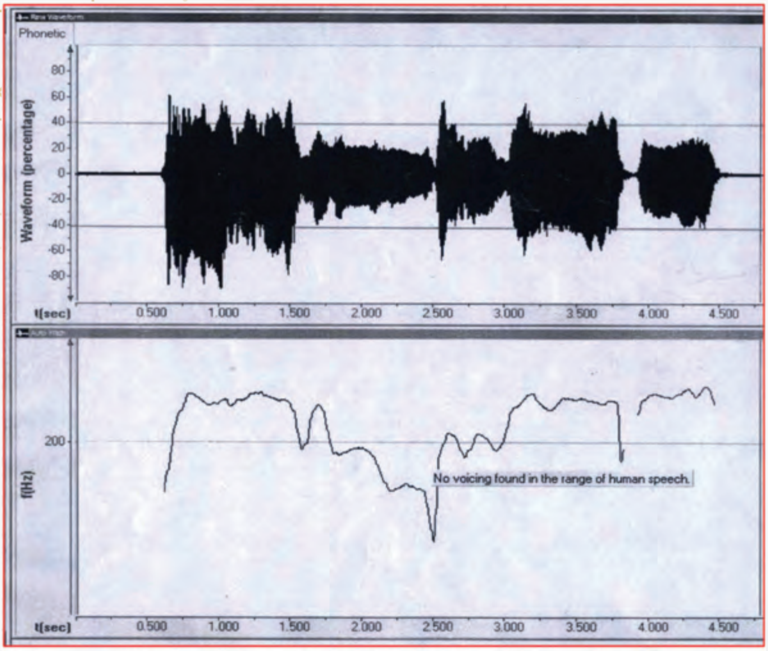
32 المصدر السابق: 141.

33 مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، ط1، بيروت، 1419 هـ - 1998 م، 1/516.

34 البحر المحيط في التفسير، 3/720.

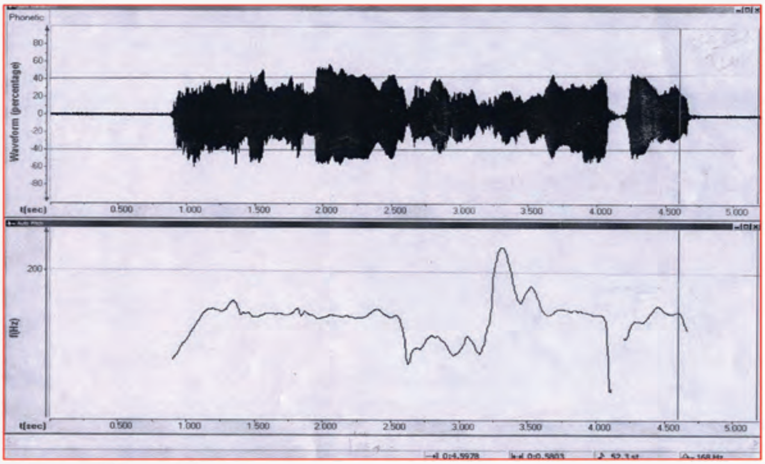
35 ينظر: http : // pr.sv.net/2006/july2006/Arabic/pages116.him

36 اجتهدتُ في أن أجد سندًا وحجَّةً قويةً لعلاقة الترتيل/التَّنغيم بالفصل والوصل، فعرضتُ هذا الأمر على العالم الحجة الثبت فضيلة الشيخ محمد عبد الحميد عبد الله خليل السكندري - رحمه الله تعالى- شيخ قُرَّاء الإسكندرية، وصاحب أعلى سند في القراءة في زمانه، فأقرني على فكرتي، فطلبت منه -رحمه الله تعالى- أن يسجِّل لي الآيات موضع الاستشهاد في هذه الدراسة بصوته مرتلةً منغمةً بصوته على ما وافق القراءات الصحيحة فيها، ففعل رحمه الله، وجزاه عنا خيرا كثيرًا.



نغمة صاعدة

الشكل رقم (1): النغمة الصاعدة للدعاء في الأداء القرآني لقوله تعالى ﴿ ومن ذريتي ﴾



نغمة منخفضة

الشكل رقم (2): النغمة المنخفضة للدعاء في الأداء القرآني لقوله تعالى ﴿ ومن ذريتي ﴾

نلاحظ من خلال ما أتاحته مناهج علم الكهرباء الصَّوتية[37] من تحليل صوتي للآية المباركة: **(ومن ذريتي)** ما يأتي:

- ارتفاع نغمة التلاوة على معنى الاستفهام، كما هو موضَّح في الشكل رقم (1)، حيث جاءت نغمة القراءة على الاستفهام نغمة عالية.
- انخفاض نغمة التلاوة على معنى الدُّعاء، كما هو موضَّح في الشكل رقم (2)، وهو ما يناسب مقام التَّضرع والتَّذلل في الطَّلب لله تعالى. وإنْ جاز أن تعلو نغمة المسألة والدُّعاء، وفقًا لسياقات ومقامات ومقاصد الخطاب، كتلك المقامات التي يكون الدُّعاء فيها أقرب إلى الاستغاثة في مواضع الكرب والشدة.

2.2. النموذج الثَّاني

قال الله تعالى : ﴿ **وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ** ﴾ (الأعراف: 113-114). قَرأَ ابن كثير ونافع وحفص : (إِنَّ لَنَا) بكسر الألف على الإخبار ههنا، وفي الشعراء على الاستفهام : ﴿ **فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ** ﴾ (الشعراء : 41-42). وقَرأَ الباقون بالاستفهام في السورتين[38].

قال أبو منصور الأزهري: "فمَنْ قَرَأَ (إِنَّ لَنَا لأجرا) فهو إيجاب ومَنْ قرأ: (أَيِنَّ لنا لأجرا) أو (أَإِنَّ لنا لأجرا)، فعلى الاستفهام، وهما ألفان: أحدهما ألف الاستفهام، والأخرى ألف إنَّ، وهي أجود القراءتَيْن[39]".

ويرجِّحُ أبو منصور الأزهري القراءةَ على الاستفهام في الموضعين، ونحن نتابعه في هذا التَّرجيح، ولنا على ذلك شاهد، وهو أنَّ الموضعين: (إِنَّ لَنَا لأجراً) (أَيِنَّ لنا لأجرا) في السورتَيْن: الأعراف والشعراء أُتبعَا بإجابة واحدة، وهي قول فرعون لهم: (نَعَم) و(نعم) إجابة عن سؤال بدلالة المقام في الموضعين ففي الأعراف أجابَهم فرعون بقوله: ﴿ **قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ**) (الأعراف: 114)، وفي الشعراء أجابهم بقوله: (**قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ** ﴾ (الشعراء: 42)؛ ولذلك قال بعض المفسرين: مَنْ تمسَّكَ بقراءة الإخبار في الأعراف (**إِنَّ لَنَا لأجراً**) جَازَ حملها على نية الاستفهام بدلالة قراءة الباقين[40]. ومَنْ تَمسَّكَ بقراءة الإخبار في آية الأعراف على قراءة ابن كثير، ونافع، وحفص، جازَ له مع الإخبار أن ينغِّم صوتَه بالاستفهام في الآية من غير إثبات لهمزة الاستفهام فيها.

وقد قمتُ بالتَّحليل الصَّوتي لتلاوة آية الأعراف: ﴿ **قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ** ﴾ (الأعراف: 113)، مرتلةً مرةً على نغمة الإيجاب، ومرة أخرى على نغمة الاستفهام، كما سوف يظهر في هذين النموذجين:

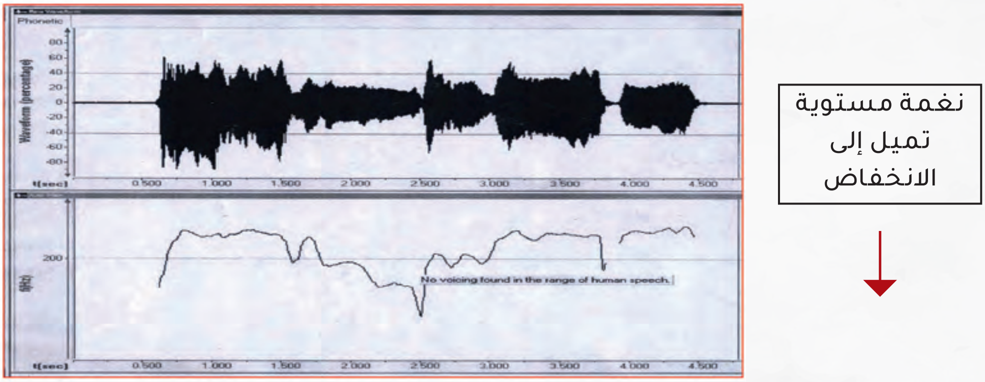
---

37 تتيح مناهج علم الكهرباء الصَّوتية الحديث لعلماء الأصوات أن يحللوا أي صوت لغوي، وأن يقدموا نتيجة التحليل في هيئة صور طيفية؛ لنقف على البنية الصوتية الفيزيقية للصوت.
ينظر: علم الأصوات، بترتيل مالمبرج، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، ص 30.

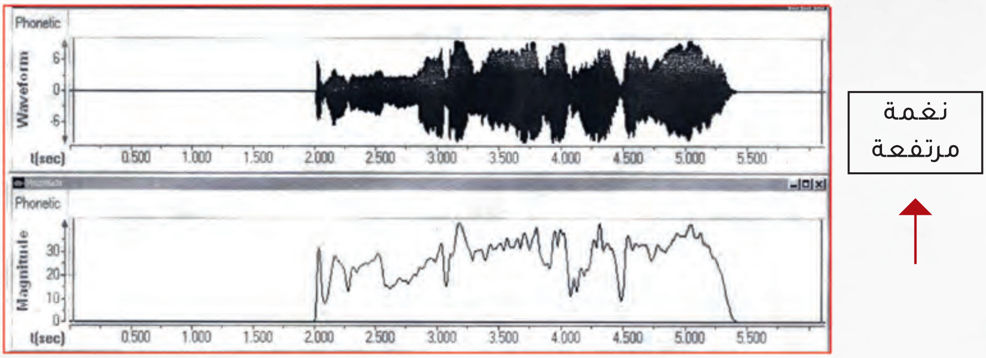
38 ينظر: كتاب معاني القراءات، ص 186. وكتاب السبعة في القراءات، ص 289.
قرأ أبو عمرو: "آينَّ لنا لأجرًا" ممدودةً في السورتين. ينظر: السبعة في القراءات، ص 289.

39 كتاب معاني القراءات، ص 186.

40 ينظر: المحرر الوجيز جـ 2 /438. والدر المصون، جـ/ 414.



الشكل رقم (3): التحليل الصوتي على جهة الاستفهام للآية 113 من سورة الأعراف



الشكل رقم (4): التحليل الصوتي على جهة الاستفهام للآية 113 من سورة الأعراف

بالنظر إلى نتيجة التَّحليل الصَّوتي للآية المباركة التي قُرِئت على نغمة الإيجاب مرَّةً، وعلى نغمة الاستفهام مرة أخرى، يبدو لنا:

- استواء نغمة الإيجاب وميلها نحو الانخفاض، كما هو موضح في الشكل (3).
- ارتفاع نغمة الاستفهام وصعودها، كما هو موضح في الشكل (4). كما يبدو أثر نغمة الاستفهام واضحا في قيامها مقام الهمزة المحذوفة، وبالتالي خروج المعنى معها إلى الاستفهام من غير لبس.

3.2. النموذج الثَّالث

ومثله كذلك قول الله تعالى يقصُّ علينا من نبأ موسى وفرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الشعراء: 18 - 19). فأجابه - موسى عليه السَّلام-بقوله: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء: 20- 22).

والشاهد في الآيات هو قول موسى عليه السلام (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيّ)، حيث اختلف سادتُنا المفسرون واللُّغويون والقُّـرَّاء في معنى الآية المباركة، فذهب جماعةٌ إلى حملها على جهة الاستفهام، أراد: أوتلك نعمة؟[41] على جهة الإنكار يقول الزجَّاج: "أخرجه المفسرون على جهة الإنكار أن تكون تلك نعمة، كأنه قال: فأيّةُ نعمة لك عليَّ في أن عبَّدتَ بني إسرائيل، واللَّفظ لفظ خبرٌ... على جهة التبكيت لفرعون[42]".

وذهبَ آخرون إلى تفسيرها على الإقرار، فيرى الفرَّاء أنَّ المعنى في الآية يُحمل على الإقرار، يقول: "وهي - لعمري - نعمة إذ ربيتني ولم تستعبدني كاستعبادك بني إسرائيل[43]". ووافقه الزَّجَّاج في ذلك، بقوله: "واللَّفظ يوجب أنَّ موسى - عليه السَّلام- قال: هذه نعمةٌ؛ لأنَّكَ اتخذتَ بني إسرائيل عَبيدًا ولم تتخذني عبدًا[44]". وذهب السُّدي والطبري إلى هذا المعنى أيضًا[45].

ويلخِّصُ السَّمين الحلبي أقوالَ المفسرين والمعربِين في الآية المباركة بقوله، وقوله: (وتِلْكَ نِعْمَةٌ) فيه وجهان: أحدهما: أنَّه خبرٌ على سبيل التَّهكم، أي إنْ كان ثمَّ نعمة فليست إلَّا أنَّك جعلت قومي عبيدًا لك. وقيل: حرف استفهام محذوف لفهم المعنى، أي: " أو تلك نعمة؟[46]"

خلاصةُ أقوال العلماء -إذن- في الآية المباركة هي جـواز حمـل المعنى فيها على الإخبار التَّهكمي، أو حمله على الاستفهام الإنكاري، ولا نستطيع في النَّص المكتوب أن نرجِّح أحد المعنيين على الآخر؛ لغياب القرينة اللَّفظيَّة والمتمثلة -هاهنا- في طريقة الأداء. في حين أنه يمكن تحديد دلالة الآية المباركة وتوجيه المعنى فيها على الخبر أو الاستفهام بالنظر إلى نغمة التلاوة حيث يتوجَّه المعنى إلى دلالة الاستفهام الإنكاري مع التِّلاوة على نغمة الاستفهام، ويتوجَّه إلى دلالة الإخبار التَّهكمي مع التَّلاوة على نغمة الإخبار، وهو ما يتضح لنا من خلال التَّحليل الصَّوتي لتلاوة الآية المباركة على

41 ينظر:معاني القرآن، أبو الحسن المجاشعي الأخفش، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1411 هـ - 1990م، 2/461. جامع البيان في تأويل القرآن، 19/343. والحجة للقراء السبعة، 2/65، 4/447. والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها 11/50. وإعراب القرآن المنسوب للزجاج،1/352. والتبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله العكبري، تحقيق:علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 2/995 والبرهان في علوم القرآن، 3/213.منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، أحمد بن عبد الكريم الأشموني، تحقيق: عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008م،1/187. والدر المصون،1/58.

42 معاني القرآن وإعرابه، جـ4 /67.

43 معاني القرآن، جـ2 /279.

44 معاني القرآن وإعرابه، جـ4 /67.

45 ينظر: جامع البيان للطبري، جـ19/42. وكذلك: المحرر الوجيز، جـ4 /228.

46 الدر المصون، جـ8 /517.

النغمتين، حيث نلاحظ ارتفاع النغمة (الموجة) وصعودها في التلاوة على الاستفهام وانخفاضها عند التلاوة على نغمة الإخبار التهكمي.

وهذا هو شأن الأداء / الترتيل في توجيه المعنى وإكساب الكلام دلالة بعينها، وهو شأن عجيب، وتصرفه في الوجوه أعجب، فهو يخرج مكنون النفس ويعبِّر عن جميع انفعالاتها وحالاتها.

4.2. النموذج الرَّابع

من الآيات التي يلعب فيها الترتيل دورًا بارزًا في توجيه المعنى، قوله تعالى: ﴿ **لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾ (يس : 35). حيث يتوقف توجيه المعنى في الآية المباركة على دلالة (مَا)، هل هي موصولة بمعنى (الذي)، أم أنَّها لـ (النَّفي).

فقد قَرأَ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿ **لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾ بالهاء. وقَرأَ عاصم في رواية أبي بكر، وحمزة والكسائي: (وَمَا عَمِلَتْ) بغير هاء[47].

والقراءةُ بغير الهاء (**وَمَا عَمِلَتْ**) تقوِّي كون (مَا) في الآية المباركة في موضع خفض، فتكون في معنى (الذي)، وحَسُنَ حذفُ الهاء التي هي عائد الصِّلة؛ لأنَّ الفعل قبلها (عَمِلَتْ) متعدّ، والعرب تُضمرُ الهاءَ في (الذي، ومَنْ، ومَا) وتظهرُها. ومن ثَم يصير المعنى معها: ليأكلوا من ثمره ومِمَّا عَمِلَتْ أيديهم[48]. أمَّا مع إثباتها (**وَمَا عَمِلَتْه**) فأنتَ بالخِيَارِ في جعلِ (مَا) موصولةً على معنى (الذي)، فتكون في موضع خفض، أو في جعلها لـ (للنفي)، فتكون لا موضع لها من الإعراب. وإنْ كان الاختيار جعلها لـ (للنفي)، فيكون المعنى معها: أنَّا جعلنا لهم الجنات والنخيل والأعناب ولم تعمله أيديهم ﴿ **أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾، وهو اختيار ابن كثير، يقول: " أي: ومَا ذاك كله إلَّا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم، ولا كدّهم، ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس، رضي الله عنهما. وقتادة، ولهذا قال تعالى ﴿ **أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾ أي: فهلَّا يشكرونه على ما أنعمَ به عليهم من هذه النِّعم التي لا تُعدُّ ولا تحصى، واختاره ابن جرير، بل جزم به، ولم يُحكَّ غيره إلَّا احتمالاً[49]".

ويرى النحاس أنَّ الاختيار حمل (مَا) على الموصولية، لا على النَّفي، يقول "وتَبعدُ أن تكون نافية[50]"، ولم يَذكرْ سببًا لذلك رحمه الله.

وأرى أنَّ (مَا) في الآية المباركة، وإنْ صَحَّ حملُها على الوجهين، أي: الموصولية أو النَّفي-الأوفق مع مقصد الخطاب القرآني -هنا-حملها على النَّفي؛ ذلك لأنَّ المقام مقام ذِكرٍ لنعم الله تعالى على عباده، وهو مقام يناسب الشكر الذي دَعتِ الآية إليه، ومن ثَم يكون المعنى: ليأكلوا مَا ليس من صنعهم (وَمَا عَمِلَتْه) ولكنَّه من صنع الخالق المُنعِم عزَّ وجلَّ عليهم ﴿ **أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾ الله تعالى المُنعِم ويوحِّدونه؟

هذا، ويعدُّ الأداء / الترتيل بذلك قرينةً صوتيةً كاشفةً عن اختيار المتكلم لنوع معين من أنواع التفسير النَّحوي الدلالي، وهو مسئولٌ في كثيرٍ من الأحيان عن تحديد عناصر الجملة المكونة لها[51]. فتنغيمُ الصَّوت بنغمة السُّؤال تقومُ مقامَ أسماء وحروف السُّؤال، وإنْ لم تكن في الكَلِم ثمة أداة أو اسم للسُّؤال، حتَّى يصير هذا الأداء الصَّوتي قرينةً صوتية يُعتدُّ بها ويُعوَّلُ عليها في فهم المعنى والدلالة.

47 كتاب السبعة في القراءات، ص 450. وينظر كذلك: الحجة في القراءات السبع، ص 191. وكتاب معاني القراءات، ص 400. وكذلك تقريب النشر، ص 237. معاني القرآن، جـ 2 /377. وزاد المسير، جـ 6 /279. والمحرر الوجيز، جـ 4 /453. وتفسير القرطبي، جـ 15/ 29. والبحر المحيط، جـ 7 /320. والدر المصون، جـ 9 /268.

48 ينظر: معاني القرآن للفراء، جـ 2 /377. ومعاني القرآن وإعرابه، جـ /216.

49 تفسير ابن كثير، جـ3 /571، 572.

50 إعراب القرآن للنحاس، جـ1 /394.

51 ينظر: النحو والدلالة، د. محمد حماسة عبد اللطيف، ص 150.

فقد يكون الكلام واحدًا وتتعدد طُرق النُّطق به، ومن ثم تتعدد المعاني المستفادة منه، كأن يقول الأب لابنه مشجِّعًا له على إحسانه وتوفيقه: "أَحسَنْتَ"، ويقول نفسَ الجملة على سبيل السُّخرية به والهُزء لابنه الآخر الذي قَصَّرَ: "أَحسَنْتَ!". فاللَّفظُ واحدٌ، والمعنى مختلفٌ، باختلاف المقام وطريقة الأداء الصَّوتي للجملتين فنغمة الاستحسان - لا ريب - غير نغمة السُّخرية والاستهزاء.

وقد يُساعد التَّرتيل / التنغيم كذلك على التَّوزيع التَّحليلي للنَّص الواحد، بحيث يمكن، مع تنغيم معين أن يكون النَّص كله جملة واحدة، ومع تنغيم آخر يكون أكثر من جملة[52]. وقد ظهر ذلك لنا جليًّا في آية سورة (يس: 35)، حيث كان التَّرتيل للآية المباركة: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نغمة الإخبار باعتبار (مَا) موصولةً بمعنى جعل الجُمل الثلاثة في الآية المباركة أوفقَ أن تكون جملةً واحدةً موصولة، في حين أنَّ تنغيمه على نغمة (النَّفي) بجعل (مَا) جَحْدًا، جعل من الأوفق -لتحقيق معنى النفي- تقسيم الآية الكريمة عند التلاوة إلى ثلاث جمل، هكذا: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ جملة، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ جملة وهى الجملة التي يُنغَّم المعنى فيها على نغمة النفي، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ جملة على الفَصْل بين الجمل الثلاثة، أو تكون الجملة الثانية والثالثة جملة واحدة يتصل فيها النفي بالإنكار بعده: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾، والآيات التي يمكن أن نتبين توجيه المعنى فيها عن طريق نغمة الأداء/الترتيل كثيرة جدًا، وهى الآيات التي تتعدد وجوهها الإعرابية تعددًا مقبولاً لا يشذُّ عن المقام والسياق ومقاصد الخطاب القرآني، ولا يخالف النقل والعقل.

ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التحريم: 1). فقوله تعالى ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ سؤالٌ محضٌ صريحٌ لا شبهةَ فيه، وهو سؤالُ تلطفٍ ومعاتبة، وتعليم للمؤمنين؛ لأنَّ التَّحريم فيه محمول على معنى المنع، وليس التحريم الشرعي.

أمَّا قوله تعالى: ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ مفصول عمَّا قبله، فهو استئناف يجوز حمله على السؤال أو الإخبار[53]. والمفسرون على أنَّ قوله تعالى: ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ معناها: تطلب رضاهن بمنع ذلك[54]، فالجملة ُفي موضع الحال من الضمير الذي في (تُحَرِّمُ)[55]، فتكون الآية على الإخبار في ذكر العلّة التي من أجلها كان التَّحريم. أمَّا حمل الآية على معنى السؤال الإنكاري، بحيث يصير المعنى: أتفعلُ ذلك مُبتغيًا مرضات أزواجك؟، أو: أتبتغي مرضات أزواجك بهذا المنع والتَّحريم؟

وهذا المعنى المحمول على الاستفهام، من السَّهل ترتيل الآية به عند التِّلاوة حتَّى يصير هذا التَّنغيم دالًا على معنى السُّؤال، وإنْ لم يكن في الآية استفهام صريح، بحيث يصير هذا السؤال امتدادًا للاستفهام الأول، فيكون المعنى - والله تعالى أعلم- يا أيُّها النَّبي لم تمنعْ مَا أحلَّ اللهُ لكَ؟، أتفعلُ ذلكَ مبتغيًا مرضات أزواجك؟ أو أتبتغى مرضات أزواجك بهذا؟

ومثله كذلك قول الله تعالى في سورة يوسف -عليه السلام- وقد دار الحوار بين فتيان يوسف -عليه السلام- وإخوته حول مصير أخيهم بنيامين الذي استُخرج صواع الملك من رحله: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يوسف: 74-75).

الشَّاهدُ في هذه الآية هو قوله تعالى على لسان أخوة يوسف عليه السلام: ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى

---

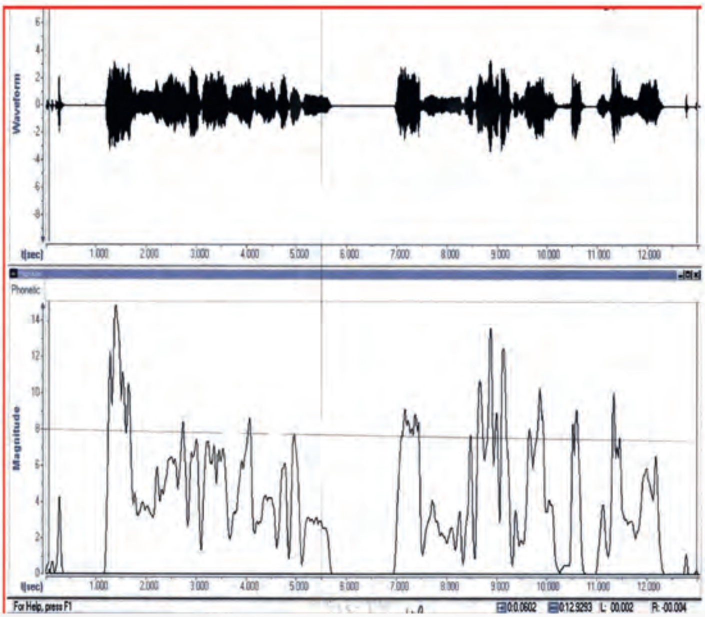
52 ينظر: المصدر السابق نفسه، ص 150.

53 ينظر: الدر المصون، ج 10 /363.

54 ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي، ج 8 /79. والقرطبي، ج 18 /177.

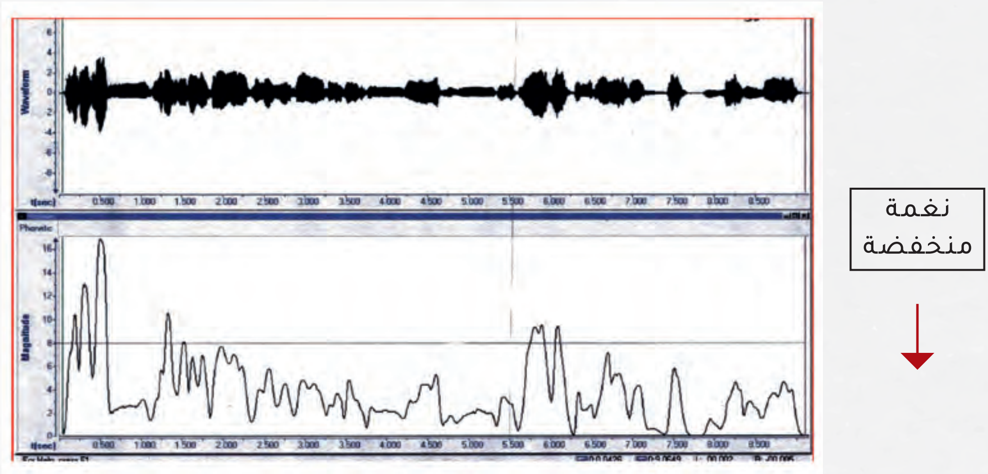
55 المحرر الوجيز، ج 5 /330.

رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أجمع المفسرون والمعربون لكتاب الله تعالى على أنَّ المعنى في الآية هو: أنَّ أخوة يوسف حكموا بأنفسهم على مَنْ يُوجد صواع الملك في رحله، وقد حكموا بشريعتهم، إذْ كان جزاء السَّارق عندهم أن يُستعبد بسرقته، فيصير عبدًا للمسروق منه، فقالوا إنَّ جزاء مَنْ يوجد صواع الملك في رَحْلِه منَّا أن يُسترقَ كما هـو في شريعـة أبينا يعقـوب (كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ). ومع أنَّ هذا المعنى هو المتبادر إلى الذهن فهمه، من الآية المباركة إلَّا أنَّه يمكن أن يُحملَ على وَجهٍ آخر من الفهم إذا ما اعتبرنا أنَّ قولهم: (قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ)، كان منهم على سبيل الاستفهام، وهو كما يسألك أحد أصدقائك ويطلب منك إبداء رأيك في أمرٍ يخصُّهُ، فيقول لك: ما رأيك فيما قلت لك؟ فتقول له: رأيي؟ وقولك هذا على سبيل الاستفهام، وكأنك تقول له أتطلب رأيي أو أتريد رأيي؟، فهو كذا، وكذا.... فكذلك الأمر في الآية، لما سأل رجالُ يوسف -عليه السلام- إخوته عن جزاء مَنْ يُوجد صواع الملك في متاعه ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾، فَردَّ عليهم أخوة يوسف، وكأنهَّم يفكّرون في الحُكم على مَنْ يوجدُ في رَحْلِه الصواع أَيُحكَمُ عليه بشريعة عزيز مصر، وهو الضَّرب والغرم ضعفين، أم يحكموا عليه بشريعة أبيهم يعقوب وهو الاسترقاق؟، فقالوا: (جَزَٰٓؤُهُۥ)؟، ثم أجابوا: جَزَٰٓؤُهُۥ ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. ويتضحُ هذا المعنى في الآية المباركة إذا ما تُليتْ على نغمة الاستفهام بحيث يُفْصَل قوله تعالى: (قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ)؟ عمَّا بعده على اعتبار أنه سؤال تقرير، وأنَّ ما بعده هو الإجابة عنه: (مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ).



نغمة تصاعدية مرتفعة

الشكل رقم (5): التحليل الصوتي لتلاوة الآية (يوسف : 75) على جهة الاستفهام



الشكل رقم (6): التحليل الصوتي لتلاوة الآية (يوسف : 75) على جهة الإخبار

ومن الأمثلة الدالة على أهمية التَّرتيل- بمعناه الواسع والذي يشمل كُلَّ ظواهر الأداء الصَّوتي من تنغيم، ونَبرٍ ووقفٍ، وسكتٍ...إلخ - في الدلالة على المعنى، قوله تعالى يقصُّ علينا من أخبار إبراهيم -عليه السَّلام- مع قومه وقد حاجّوه في الله: ﴿ وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: 80). حيث لمَّا كان قوم إبراهيم - عليه السَّلام - يعبدون الأصنام والكواكب، أراد أن يُقيم عليهم الحجَّةَ والبرهانَ بالدليل العملي على بطلان معبوداتهم هذه، فكان له مع أصنامهم شأن ذكرته سورة الأنبياء[56] بَانَ لهم معه عَجزُ هذه الأصنام عن النَّفع والضُّر؛ فهي لا تملكُ أن تدفعَ عن نفسها، ومع ذلك سَدروا في غيهم وتمادوا في العناد، فرجعوا إلى عبادة أصنامهم. وها هو له شأن آخر مع معبوداتهم من الكواكب: النجوم، القمر، الشَّمس. فلمَّا ستره اللَّيل بظلمته رأى كوكبًا، فقال مجاراةً لهم: (**هذا ربي**) (الأنعام: 76) على قولهم، فلمَّا أَفَلَ بَانَ له ولهم أنَّه ليس بإلهٍ؛ فليس من شأن الإله الأفول والغياب والحدوث: (**فلما رأى القمر**) (الأنعام: 77)، قال مثلَ قولهم ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: 78 - 79)، أي: مائلًا إلى الإسلام مَيْلًا لا رجوع معه[57].

وهكذا بيَّنَ إبراهيمُ -عليه السَّلام - لقومه في تجربةٍ عملية النقائضَ التي من أجلها بطلت عبادة آلهتهم وصرفته عن اتخاذهم أربابًا من دون الله الذي خلق السموات والأرض وخلقهن، ولكنه العناد والجحود: ﴿ **وحَاَّجهُ قومُه** ﴾ (الأنعام: 80)، أي "جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها[58]"، فأنكرَ عليهم في ثبات ويقين المؤمن هذه المحاجة: ﴿ **قال أتحاجوني في الله** ﴾ (الأنعام: 80)، أي في توحيد الله[59] ﴿ **وَقَدْ هَدَىٰنِ** ﴾ (الأنعام: 80)، وقد بَيَّنَ لي ما به اهتديتُ، فأرشدني إلى معرفته وتوحيده[60].

56 سورة الأنبياء الآيات: (51: 70).

57 ينظر: معاني القرآن وإعرابه، ج 2/ 216.

58 زاد المسير، ج3/ 58.

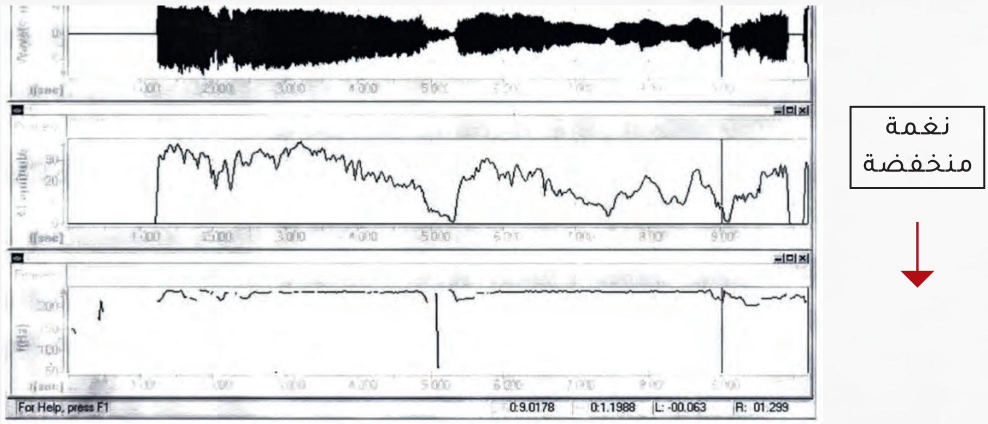
59 معاني القرآن وإعرابه، ج2/ 216. وكذلك زاد المسير ج3/ 58.

60 ينظر: المحرر الوجيز، ج2/ 314.

والشَّاهدُ في آية الأنعام التي معنا هو قوله تعالى على لسان إبراهيم، عليه السَّلام: (**قال أتحاجوني في الله**) وهو استفهام إنكاري توبيخي مُفعَمٌ بالزجر الشَّديد؛ حيث ينكرُ إبراهيم - عليه السَّلام- على قومه أن يحاجُّوه ويجادلُوه في توحيد الله تعالى وقد بَانَ لهم بطلانُ معبوداتهم وعجزُها، ومن ثَم فهم مستحقون للتَّوبيخ والزَّجر؛ لما هم عليه من عِنادٍ وجُحودٍ، وقد جاء قوله تعالى: ﴿ **وَقَدْ هَدَىٰنِ** ﴾ حَالاً مؤكِّدة للإنكار في أسلوب السُّؤال، لا سيَّما أنَّهم مشغولون في هذا العناد، متمادون في كفرهم، وهو ما عبَّرَتْ عنه صيغةُ المضارع في قوله: (**أتحاجوني**)؟ هذا فضلاً عما خُتَمتْ به الآيةُ المباركةُ من سؤال إنكاري توبيخي في قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (الأنعام: 80)، وهـو مِمَّا يرشـحُ لمعنى الإنكار والتَّوبيـخ والزَّجر[61] في قوله تعالى ﴿ **أتحاجوني في الله**) الذي هو شاهد الدِّراسة.

ومن بديع النَّظـم في كتاب الله تعالى وإعجازه هذه الآية المباركة (**أتحاجوني**) حيث جاء المبنى -وما فيه من مدود-مُشاكِلاً مُشاكلةً عجيبةً لمعنى التركيب؛ فلمَّا كانت المُحاجَّة هي تقارعُ الحجج بين الخصوم، بحيث يأتي كلُّ منهم بحُجةٍ يجادلُ بها عن رأيه في عنادٍ وتمادٍ وغرورٍ، جاءتْ بنية التركيب (**أتحاجوني**) مُشاكِلةً لهذا المعنى. وهذا ما يؤكِّده مقام الآية المباركة وسياقها، حيث إنَّ المقام مقام محاجَّة وجدال، فقوم إبراهيم - عليه السَّلام- ليس لهم فيما أقامه إبراهيم عليهم من الحُجَّة والبرهان على بطلان معبوداتهم مقنعٌ ولا كفايةٌ، وإنَّما المقنعُ والكفايةُ فيما يرونه هم من أحقية معبوداتهم بالعبادة، وبطلان عبادة ما دعاهم إلى توحيده وإفراده بالعبادة!، ولما كان منهم هذا التَّمادي والعناد واللجج في الخصومة والمحاجة بالباطل أنكر إبراهيم -عليه السلام- فعلهم هذا ووبَّخهم عليه وزجرهم عنه بقولـه: ﴿ **قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ** ﴾ (الأنعام: 80)، وقد جاء التَّرتيل بوصفه طريقةً في الأداء الصَّوتي مُعبِّرًا عن هذا الموقف والمقام بما اكتنفه من مبالغة لإبراهيم عليه السَّلام في إنكار هذه المحاججة الباطلة ومن ثَم جاءتِ النغمة شديدة الارتفاع والتَّوتر، حَتَّى كأنَّ الآية صرخة احتجاج عنيفة من إبراهيم في وجه هؤلاء المعاندين.

وقد وضَّحَ التَّحليلُ الصَّوتي للآية هذا الارتفاع الشديد في النغمة الذي عبَّر بدوره عن مناسبته لسياق الآية ومقامها؛ وقد قمتُ بالتَّحليل الصَّوتي لقوله تعالى : ﴿ **قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ** ﴾ (الأنعام: 80)، وقد جاءت نتيجة التَّحليل على النَّحو الآتي:



الشكل رقم (7): التحليل الصوتي لتلاوة الآية (الأنعام : 80) على جهة الاستفهام الإنكاري

61 ينظر: الكشاف، جـ2 /32. والبحر المحيط، جـ4 /169. والقرطبي، جـ7 /29. وروح المعاني، 7 /24. والتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، جـ1 /322.

وينبغي أن نشير ههنا إلى أنَّ ارتفاع نغمة الصَّوت في هذا التَّحليل ليس له علاقة بارتفاع صوت القارئ أو انخفاضه، بل جاء هذا الارتفاع معبرًا عن بِنيّة الكلمة وحمولاتها الدلاليّة.

ونلاحظ من نتيجة التَّحلِيل الصَّوتي السَّابق أمرين:

- **الأول:** النغمة جاءت طويلة؛ وذلك لكثرة المدود في الجملة: (**أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي**)، حيث استغرقت هذه المدود زمنًا مقداره أربع عشرة حركة[62] بمصطلح علماء التَّجويد، منها اثنتا عشرة حركة للمد اللازم الكلمي المثقل، الذي تكرَّرَ مرتين، وحركتان للمد الطَّبيعي في الياء، وهذا تكوثر نغمي يحمل زخمًا دلاليًّا للموقف.

- **الثاني:** نغمة الصَّوت جاءت في أعلى درجاتها، وهو ما يتناسب مع غرض الاستفهام في الجملة وهو الإنكار المفعم بالتَّوبِيخ والزجر.

ونودُّ أن نشير في هذا الصدد إلى فلسفة المد في الأداء القرآني، حيث يطرح هذا السؤال نفسه: ما هي فلسفة المدود في القرآن الكريم؟ بمعنى آخر: لماذا نلتزم في المد الكلمي اللازم المثقل في القرآن الكريم ست حركات في حين أن هذه الكلمات ترد في حديثنا العادي ولا نمدها هذا القدر من المد؟

نقول: إنَّ الأداء القرآني له فلسفة ترتبط بخصوصية النَّص القرآني بوصفه نصًّا شفاهيًّا، فما ينبغي التلفظ به في الأداء القرآني ليس ملزمًا في غير القرآن من أحاديث الناس. ومن هذا السَّبيل تأتي فلسفة المدود في القرآن الكريم بوصفها أحد الظواهر المميزة في الأداء القرآني.

بدايةً لا بدَّ أن نجعلَ على ذُكْرٍ منَّا ونحن ندرس ظواهر الأداء القرآني، من مدود، وفواصل، وإدغام، وإعلال وإبدال، نبر، وتنغيم...إلخ أنَّها أحد مظاهر تيسير الله تعالى كتابه العزيز للذِّكر، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر: 17)، ومن ثَم يمكن أن نعزو كثيرًا من العلل الصَّوتيَّة في الأداء القرآني إلى مبدإ التَّيسير والتَّسهيل في النُّطق، فالمدُّ الكلمي المثقل اللازم على سبيل المثال في كلمات مثل: (الضَّآلِّينَ، حَآجَّهُ، أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي...إلخ).

ويجئ هذا النَّوع من المدِّ في مثل هذه الكلمات في الأداء القرآني لعدة علل:

- **علل صَرفيَّة:** ويُقصد بها الفَصْل بين السَّاكنَيْن؛ لأنَّ وقوع "المشدَّد بعدهنَّ، فلأنَّهنَّ -كما ترى- سواكن، وأول المثلين مع التَّشديد ساكن، فيجفو (يصعب) عليهم أن يلتقي السَّاكنان حشوًا في كلامهم، فحينئذٍ ما ينهضون بالألف بقوة الاعتماد عليها، فيجعلون طولها ووفاءَ الصَّوت بها عوضًا مِمَّا كان يجبُ؛ لالتقاء السَّاكنين: من تحريكها إذا لم يجدوا عليه تطرقًا، ولا بالاستراحة إليه تعلقًا، وذلك نحو: شَابَّة، ودَابَّة[63]". . فجعلوا الحركة عقب الإسكان؛ ليعتدلَ الكلامُ، ومن ثَم يسهلُ نطقُه، وهذه العِلة الصَّرفيَّة نفسها هي من قَبِيل تيسير النُّطق، حيث قام المَدُّ مقام الحركة التي يُتوصل بها إلى الفصل بين الساكنين في الحرف المشدد[64].

- **علل تطريبيَّة إيقاعيَّة:** تتمثلُ في رسوخ صوت المد ونصوعه والمحافظة عليه في الأداء القرآني، الأمر الذي يزداد معه الجَرْس (الإيقاع) القرآني حُسنًا؛ لأنَّه "كلمَّا رسخ الحرفُ في المدِّ كان حينئذ

62 الحركة: هي فترة زمنية تُقدَّر بمقدار بسط أو قبض إصبع اليد في اعتدال. ينظر: غاية المريد في علم التجويد، عطية قابل نصر، ص 93.

63 الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج3 /128.

64 ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط3، 1984م، ص 60، 61.

محفوظًا بتمامه، وتمادَى الصَّوت به.... (فكان) أوفى صوتًا وأنعم جرسًا[65]". هذا، فضلًا عن تحقيق نوع من التَّناسب الصَّوتي مع الصوامت المجاورة، والانسجام في الأداء القرآني.

• **ضبط الأداء القرآني:** يتجلى في المحافظة على الحركة الطويلة في حروف المد من التقصير[66]".

وما دام الأمر كذلك فلا عجب أن يرتبط التَّرتيل بدرس الفَصْل والوَصْل؛ لأنَّه وثيق الصِّلة بأداء المعنى، فقد يتطلب المعنى الفَصْلَ في موضع، وقد يتطلب الوَصْل في موضع آخر تتميمًا للفائدة، وتصحيحًا للمعنى نفسه، ولكلِّ موضعٍ من هذه المواضع نغمة (Tone) تناسب المعنى الذي يُؤديه اللَّفظ في مقام معين وسياق بعينه؛ فالوقفُ -مثلًا-على السُّؤال تتعدد نغماته بتعدد دلالاته ومقاماته، فنغمة السُّؤال الإنكاري تختلف عن نغمة السُّؤال التَّقريري، تختلف كذلك عن نغمة السُّؤال التَّعجبي... وهكذا.

ونحن عندما نطبق ظاهرة التَّرتيل؛ بوصفها طريقةً في الأداء الصَّوتي للآي على درس الفَصْل والوَصْل في القرآن الكريم؛ فإننا لا نطبقه على النَّص المكتوب لأنَّه لا ترتيل في الكتابة، وإنما التَّرتيل في المنطوق، فالتطبيق حينئذ يكون على القرآن الكريم بوصفه نصًّا مقروءًا أُمِر المسلمون بترتيله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة: 121)، ومن وحسن تلاوته أداؤه على الوجه الصَّحيح المُتبَع.

وقد راعى علماء التَّجويد والقراءات -رضوان الله تعالى عليهم- هذه الظَّاهرة أو قل الطريقة في الأداء عند تلاوة القرآن، فنبَّهوا إليها في كتب القراءات والتَّجويد والتَّفسير والإعراب، حيث نبَّه المعربون والمفسرون لكتاب الله تعالى - رضوان الله تعالى عليهم- إلى ذلك بما تحدثوا فيه من تعدد الوجوه الإعرابية للآية الواحدة، ودلالة هذا التَّعدد في الإعراب على المعنى، حتَّى أصبح هذا التَّعدد الإعرابي دليلًا على غياب النغمة في النَّص المكتوب، بل ودليلًا على وجودها وظهورها عند القراءة، وهو ما يعني بدوره عدم إنكار القراءة على أحد هذه الوجوه الإعرابية مادامت متفقة مع حرف من حروف القرآن السبعة، وهى في الغالب لا تشذُّ، فقد تأتي القراءة في موضع على جهة الاستفهام، وتأتي على جهة الإخبار من طريقٍ آخر من طرق القراءات الصَّحيحة المتواترة، فتكون لكلِّ قراءة عندئذٍ نغمتها التي تنسجم مع المعنى الذي تدل عليه القراءة. ومن الآيات التي يلعب التَّنغيم دورًا مهمًا في توجيه المعنى في اتجاه معين قوله تعالى في أهل النار: ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: 175)، فالآية معناها التعجب، والمراد تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار؛ فكأنَّهم بهذه المباشرة للأسباب صَبروا على العقوبة في نار جهنم[67]. وقد تُحمل الآيةُ على معنى السّـؤال: فأي شيء صَبَّرهم على عذاب النار وجرَّأهم عليها، وقد أتاهم ما يُبعدهم عنها؟ ومثله كذلك قوله تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ (التوبة: 43). ومثال ذلك القراءة في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (يونس: 81)، قَرأَ الجمهور قوله تعالى ﴿ ٱلسِّحۡرُ ﴾ بهمزة وصل على الإخبار، وقَرأَها أبو عمرو، وأبو جعفر بهمزة قطع ممدودة على الاستفهام (آلسِّحْرُ) ووافقهما اليزيدي[68].

جاءت قراءة الجمهور على معنى الإخبار؛ "لأنَّ موسى صلوات الله عليه وسلامه لم يكن شاكًّا فيما جاءتْ به السَّحرةُ أنَّه سحرٌ لا حقيقة له، فيحتاج إلى استخبار السَّحرة عنه أي شيء هو؟، ولكنه صلوات

65 المصدر السابق، ج3 /128.

66 ينظر: الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، 1975م، ص 159.

67 ينظر: زبدة التفسير من فتح القدير: الشوكاني، ص 33.

68 ينظر: اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، البنا الدمياطي، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل - نشر عالم الكتب، ط1، بيروت، والكليات الأزهرية بالقاهرة، 1978 م، ج2 /118.

الله عليه أعلمَهم أنَّه عالم ببطول ما جاءوا به من ذلك بالحق الذي أتاه. ومُبطل كيدهم بجدِّه، وهذه أَوْلى بصفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الأخرى"[69]. وتجوز القراءة من طريق أبي عمرو وأبي جعفر واليزيدي على جهة الاستفهام (**ءَالسِّحْرُ**) فيُنَّغم الكلام معها تنغيم الاستفهام لا الإخبار، ويكون الوقف عليه حينئذٍ وقفًا حسنًا[70] إذ إنَّه موضع فَصْل.

والقراءةُ على وجه الاستفهام وتنغيم التِّلاوة به تدلُّ على معانٍ تدور كلها حول الإنكار والتَّوبيخ والتَّحقير والتَّقليل من شأن ما جاء به السَّحرةُ ومن السِّحر والتَّخييل، والله تعالى أعلم.

69 جامع البيان، الطبري، ج11 /102، 103.

70 ينظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، ص 179. والتوجيه البلاغى للقراءات القرآنية ص 335. وإعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثميين، مكتبة الخانجى، ط1، القاهرة، 1912م ج1 /272.

الفصل الثَّالث

ضوابط الأداء القرآني
ودوره في فصاحة اللفظ القرآني
(القلقلة نموذجا)

الفصل الثَّالث

ضوابط الأداء القرآني (القلقلة نموذجا) ودوره في فصاحة اللفظ القرآني

1. ضوابط الأَدَاء القرآني

للأَدَاء القرآني ضوابطه ومعاييره التي تضبطه وتصححه، فهو ليس مجرد ظاهرة صَوتيَّة لا ضابط لها؛ وإنَّما هو قرينة صوتيَّة مهمة من قرائن الأداء يُعوَّل عليها في فهم المعنى واستنباط الأحكام أحيانًا، لا سيَّما أنَّ النَّص القرآني نصٌّ شفاهي في المقام الأول، فالأصل فيه التَّلقي والمشافهة ثم الكتابة، وهو لا يُؤثِّرُ فينا بوصفه نصًّا مكتوبًا بقدر ما يؤثر فينا بوصفه نصًّا مسموعًا متلوًّا ومرتَّلًا له خصائصه الصَّوتيَّة المصاحبة لترتيله التي هي جزء أصيل من معانيه وبيانه، وتلك هي وظيفة أهم خصائص الأداء الصَّوتي في القرآن الكريم.

ولكي يتوافق الأداء الصَّوتي مع الدلالة والمعنى في النَّص القرآني المقروء يجب أن يكون هذا التَّرتيل صادرًا عن عالم بوجوه قراءاته، وتفسيره، ووجوه إعرابه، وأحكامه، وأسباب نزوله، فضلًا عن علمه باللُّغة التي نزل بها، بطرائقها في البيان والتَّعبير، وهو أمرٌ لا يتأتَّي لكل أحدٍ من الناس، وإنَّما هو أمر لا يقدر عليه ولا يجيده إلَّا العلماء المحققون الذين راضوا أنفسهم على ترتيل النَّص القرآني عن علم ودراية ورواية، ولِم لا؟ والقرآن نصٌّ قدسي له من المهابة والجلال والعزة والإكرام ما يجب أن يمنع تجرؤ الأدعياء وأنصاف العلماء عليه؛ ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلَّم- (الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُو مَاهِرٌ بِهِ مَعَ الْكِرَام السَّفَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُو عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ)[1].

وهل استحقَّ المهرة بالقرآن ذلك الجزاء إلَّا لأنَّهم بيَّنوه للناس تبينًا، فتمثَّلوا معانيه، فكانوا وقَّافِّينَ عند وَعْدِهِ ووَعِيدِه، وترغيبه وترهيبه...إلخ، وأوقفوا الناس على هذه المعاني في كتاب الله، وأبلغوهم رسالةَ ربِّهم، فحصلَ لهم من الهدى والرَّحمة ما لم يحصل لغيرهم ممَّنْ لم يقفوا على ما وقفوا هم عليه في كتاب ربِّهم؛ وهذا من جملة ما أمر الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل:4)، أي: تُبَيِّنُهُ تَبْيِينًا[2]. ومن التَّرتيل أيضًا معرفة الوقوف وتجويد الحروف. وطرق الأداء القرآني أدَّاها القراءة بالنقل عمَّن قبلهم، فهي منضبطة بالتلقي والتَّواتر. وضرورة إلمام القُرَّاء الذين يرتلون القرآن الكريم بهذه العلوم أمرٌ لازم؛ لأنَّ العلم بقراءاته يجعل القارئ على بصيرة بالمعاني التي تدل عليها القراءات، وهي معانٍ قد تتطلب الفَصْلَ في موضع، والوَصْلَ في موضعٍ آخر، فقد يكون الوقف تامًّا على قراءة، غير تامٍّ على أخرى. كما قد يكون الوقف تامًّا على تفسير وإعراب، غير تامٍّ على تفسير

1 الحديث: أمَّا مَنْ يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، فله أجران. يعني: أجر القراءة والاجتهاد فيه، وهؤلاء لا يُتلقَى عنهم؛ لأنهم عاجزون هنالك عن إشعار المسلمين بجمال وإعجاز القرآن.

2 أحكام القرآن: أحمد بن علي أبو بكر الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، 1415هـ - 1994م، 3 /627.

وإعراب آخر. أمَّا ضرورة الإلمام بعلم النَّحو وتقديراته، فذلك لأنَّه قد يكون الفَصْلُ في موضع مقتضيًا لإعراب معين، يترتب عليه معنى معين كما في قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: 35)، فالوقف على قوله : ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾، والاستئناف بقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ يجعل "مَا" هنا نافيةً فيكون المعنى : ليأكلوا من الثمر الذي أخرجناه لهم، ولم تعمله أيديهم. في حين أنَّ الوصل ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ يجعل"ما" موصولةً، فيكون المعنى معها: ليأكلوا من ثمره ومن الذي صنعتُه أيديهم.

كما أنَّ معرفة أحكام القرآن والإلمام بمذاهب الفقهاء فيه يُعين في كثيرٍ من المواضع على حسن أداء المعنى، فقد يكون الوقف (الفَصْل) على موضعٍ يقتضي حكمًا مخالفًا للوصل فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: 4).

فالوقفُ على قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾ وفصلُه عمَّا بعده مَذهبُ مَنْ يَرى أنَّه لا تُقبَلُ شهادة القاذف -أبدًا- وإنْ تاب، فتوبته بينه وبين ربَّه[3]؛ ولذلك فإنَّه لا غنى لأهل الأداء عن معرفة أسباب النزول، والعلم بمذاهب الأئمة المشهورين في الفقه؛ لأنَّ ذلك يُعين على معرفة الوقف والابتداء، ففي القرآن مواضع ينبغي الوقف عليها على مذهب بعضهم، ويمتنع الوقف عليها على مذهب آخرين.

كما لا بدَّ له من العلم بمعنى ما يرتله؛ لأنَّ ذلك يصحِّحُ له طريقةَ الأداء، ويبصِّره بمواضع الفَصْل والوَصْل فيما يقرأ، على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: 7).

فعلى تقدير الوَصْل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ يكون الراسخون في العلم يعلمون تأويله، وعلى تقدير الفَصْل والاستئناف يكون المعنى بخلاف ذلك إذا استأنف القارئ بقوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وهو الأَوْلَى، فهو قول الكسائي، والأخفش، والفراء، وأبي عبيدة، وأبي حاتم، ويحتجُّ في ذلك بما رَوى طاووس عن ابن عباس أنه قرأ: وما يعلم تأويله إلَّا الله ويقول الرَّاسخون في العلم آمنا به[4].

ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: 52)، فالمعنى يقتضي السَّكت وقفًا من غير تنفس على (مَّرْقَدِنَا) وفصله عمَّا بعده؛ لأنَّه قول الكفار، ثم استئناف القراءة من غير تنفس ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ لأنَّه من قول الملائكة.

هذه بعض الضَّوابط والمعايير التي يجب أن يُلمَّ بها أهل الأداء والترتيل، ولا يزال هذا الدَّرس بحاجة إلى جهد كبير بعد ذلك. والله تعالى أعلم.

خلاصة القول، يمكن أن نجمل النتائج المتعلقة بدراسة التَّرتيل في كتاب الله تعالى فيما يأتي:

أ. الإيجاز: فالتَّرتيلُ في القرآن الكريم بوصفه قرينةً صوتيَّةً تقوم مقام الألفاظ المنطوقة، يُعوَّل عليها في توجيه المعنى في بعض المواضع، فقد يُنغِّمُ التَّرتيل بنغمة الاستفهام، وليس في الآية اسم أو حرف استفهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء: 22)، فترتيلُ

3 ينظر: معاني القرآن، 2/246.

4 معاني القرآن، النحاس، 1/351.

الآية على نغمة الاستفهام، يُشعرُ بوجود حرف استفهام محذوف في الآية، والتقدير: أو تلك نعمة تمنها عليَّ...؟

ب. ترتيلُ النَّصّ القرآني يُعطي خصوصية للأداء الصَّوتي: وهي صفة رئيسة فيه، يجب ألَّا تفارقه؛ لأنَّها إحدى مؤثراته الدلالية، ومن ثَمَّ كان تجريد النَّص القرآني من هذه الصِّفة (الترتيل) تجريدًا له من خصوصيته التأثيريَّة، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: 23). وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة: 121). وحقّ تلاوته إعطاؤه حقه ومستحقه في التَّرتيل، ونحن مأمورون بذلك قال الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل: 4). فهل من دليل وراء ذلك يؤكِّد على أهمية التَّرتيل في قراءة القرآن الكريم الذي يُعدُّ جزءًا من معناه ودلالاته وتأثيره في القلوب.

إنَّ قارئ القرآن إنْ لم يرتله كما أمرَ الله تعالى، ويقرأه القراءة المتبعة المتواترة عن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- فإنَّه يُحيِّد الكلمات فيه ويفرّغها من كثيرٍ من دلالاتها الصَّوتية والتأثيرية، ومن ثَم تفقد جزءًا كبيرًا من تفاعلها مع التَّركيب والسِّياق الذي ترد فيه؛ لأنَّ لكل سياق من سياقات القرآن الكريم نغمته التي تتوافق معه، فنغمة الوَعد تختلف عن نغمة الوَعِيد، ومقام ذكر الجنَّة يختلف في الأداء الصَّوتي عن مقام ذكر النَّار... وهكذا. كما أن ذكر الله وصفاته مقام تعظيم وتوقير في حين أن ذكر الافتراء عليه -سبحانه- مقام إخفاء وترقيق، فقد وَرَدَ أنَّ الصَّحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يُخفضون أصواتهم عند قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ (البقرة: 116)، ثم يرفعونها عند قوله: (سُبْحَٰنَهُ) مبالغةً في التَّنزيه والتَّبرئة.

أ. الأداء الصَّوتي بتأثيراته المختلفة وجهٌ من وجوه إعجاز النَّظم القرآني: فلا يوجد نصٌّ له من خصوصية الأداء الصَّوتي ما للنَّص القرآني المُعجِز، وهي خصائص دائمة الاتصال به، تزيده روعة وجمالًا مهما تكرَّرَ، فقد جعله الله تعالى متلوًّا لا يُمَلُّ على طول التِّلاوة، ومسموعًا لا تَمجُّه الآذان، وغَضًّا لا يَخلَقُ على كثرة الرَّد... (لا يَتْفَه ولا يَتَشَانّ[5]). فالقلوبُ المؤمنة تدمن النغم القرآني، فحيثما استمعته ألقيتْ إليه السمع والبصر والفؤاد جميعًا، فلا تَمَلُّ سماعه، بل إنَّ لها في كلِّ يوم شأنًا مع آياته، فقد تقفُ في الآية اليوم على معنًى لم تقف عليه من قبل، وتشعر بها شعورًا جديدًا لم تكن تعرفه من قبل، وهكذا حالها مع القرآن أبدًا، بما يضيفه جمال الأداء على الآيات المنطوقة من ظلالٍ ليست موجودة في النَّص المكتوب، حيث تنقل هذه الظِّلال في الآيات المنطوقة (المنغمة) إحساسًا بالمعنى لا يمكن أن يصل إلينا إلَّا من خلال هذا الأداء الصوتي المميز، فهو طيف لا تمسك به الكتابة، وإنما تُمسك به نغمات الصَّوت.

ب. التَّرتيل أحد مفاتيح الدلالة في النَّص القرآني المرتل: لقد راعى القرآن الكريم نفسه هذه الظَّاهرة التَّأثيريَّة في الأداء الصَّوتي، فجاءتِ السور المكيَّةُ قصيرةً الآيات ذات تكوثر وزخم إيقاعي ملحوظ على نحو ما نجد في سور: (الرَّحمن- الجن - المزمِّل - المدَّثر - عبس- التَّكوير- البروج...) وغيرها من السور المَكيَّة التي تميزت بقصر الآيات وثراء الإيقاع وتنوع النَّغم، الأمر الذي جعله يجذب الأسماع ويستميل القلوب والعقول.

هذه بعض نتائج درس التَّرتيل في القرآن الكريم، وهو درس لا يزال بحاجة إلى توافر مجموعة من الجهود المعنية بدراسة القراءات والتجويد، واللُّغة والنحو والبلاغة والأصوات، وحسبنا أن لفتنا النظر في هذه الدِّراسة إلى أهمية هذا الدرس في كتاب الله تعالى، والله تعالى أعلم.

5 دلائل الإعجاز، ص 388.

2. دور الأداء القرآني (القلقلة نموذجا) في فصاحة اللفظ

1.2. الفصاحة والمتواليات الصَّوتيَّة للفظ المفرد

من الأهمية بمكان - قبل الحديث في القلقلة، وعللها الصَّوتيَّة، ودورها في تجلية فصاحة اللَّفظة القرآنية- بيان معنى الفصاحة، وعلاقتها بصوتيات اللَّفظ. وسوف نقصر الحديث على خلو اللَّفظ من التَّنافر الصَّوتي دون باقي شروط الفصاحة؛ نظرًا لصلته المباشرة بظاهرة القلقلة بوصفها ظَاهرةً صَوتيَّةً؛ فكلاهما مُرتبطٌ ببنيةِ اللَّفظِ الصَّوتيَّة.

1.1.2. اختصاص الفصاحة بالإبانة والوضوح

لا يَخرُجُ المعنى اللُّغوي والاصطلاحي للفصاحة عن معنى الإبانة والوضوح وخلوص الشَّيْء ممَّا يشوبُه؛ تقول العرب: أَفْصَحَ الصُّبحُ إذا أَضَاءَ، وأَفْصَحَ اللَّبنُ إذا اِنْجَلتْ رغوتُه، وأَفْصَحَ الأعجَميُّ إذا أَبانَ بعد أن لم يكن يُفصِحُ ولا يُبِينُ. واسْتُعِيرَ منه قولهم: فَصُحَ الرَّجلُ؛ أي: جَادَتْ لغتُه، ثم استُخدِمَتِ الكلمةُ لتدلَ على اللِّسان، فقيل: أَفْصَحَ الرَّجلُ؛ أي: تَكلَّمَ العَربيَّة[6]. وجاء في لسان العرب: الفَصَاحَةُ: البَيانُ. ولِسَانٌ فَصِيحٌ؛ أي: طَلْقٌ، وأَفْصَحَ عن الشَّيْءِ إِفْصَاحًا إذا بَيَّنَه وكَشَفَه. والفَصِيحُ: المُنْطَلِقُ اللِّسان[7].

وفَصُحَ: اِنْطَلَقَ لسَانُه، وخَلُصَتْ لغتُه من اللُّكْنةِ[8]. ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (القصص: 34). فالفَصَاحَةُ - إذن- هي الإبَانَةُ والظُّهور[9].

ويعرِّفُ أبو هلال العسكري (ت :395هـ) الفصَاحةَ بقوله: "الفصَاحةُ تمامُ آلة البيان، فهي مقصورةٌ على اللَّفظِ؛ لأنَّ الآلةَ (اللِّسان) تتعلَّقُ باللَّفظِ دون المعنى. والبلاغةُ إنَّما هي إنهاءُ المعنى إلى القلب، فكأنَّها مقصورةٌ على المعنى وقد يجوز أن يُسمَّى الكلامُ الواحدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إذا كانَ واضح المعنى، سهل اللَّفظ جيد السَّبك، غير مستكرهٍ فِجٍّ، ولا مُتكلَّف وَخِم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شَيْءٌ لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف[10]".

تختصُّ الفَصاحةُ -إذن- بالبيان، والوضوح، وخلوص اللَّفظ مِمَّا يشوبه من الغموض، والتَّعقيد، والغرابة، والاستكراه، والتَّنافر، والثِّقل؛ لأنَّ مناطَ الأمر وجِمَاعَه فيها هو البَيانُ. كما تختصُّ أيضاً باللِّسان الذي هو آلة النُّطق؛ لأنَّها صفة للألفاظ التي هي وعاء المعنى، فإذا كان اللَّفظُ معقَّدًا جاء المعنى غَامِضًا، وإذا كان اللَّفظُ فَصِيحًا، بحيث يخلو من التَّعقيد والتَّنافر والغرابة جاءَ المعنى قريبًا واضِحًا ولذلك سألَ موسى -عليه السَّلام - اللّه تعالى حين بعثه إلى فرعون لإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته، أن يحلل عقدةَ لسَانِهِ؛ ليفهمَ عنه فرعونُ البلاغَ. فقال تعالى: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (طه:28-27). ولمَّا كان هارون -عليه السَّلام- لا عُقدةَ في لِسَانِه، ولا حبْسَةَ في بَيانِهِ طَلبَ موسى من الله تعالى أن يُشركَه في أمرِهِ؛ لأنَّه أفصحُ منه لِساناً وأتمُّ بَياناً. فقال: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (القصص:34).

---

6 ينظر: المفردات في غريب القرآن، الرَّاغب الأصفهاني، راجعه وقدَّمَ له: وائل أحمد عبد الرَّحمن، المكتبة التَّوفِيقية بالقاهرة، 2003م. وكتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلميَّة، ط2، بيروت، 1409هـ - 1989م. ص 16. وينظر: معجم مقاييس اللُّغة، ابن فارس، مادة (ف، ص، ح)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399 هـ - 1979م، ص 16.

7 لسان العرب، ابن منظور، باب الفاء، مكتبة إحياء التُّراث العربي، ط2، القاهرة، 1997م.

8 بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروزابادي، تحقيق: محمَّد على النَّجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، القاهرة، 1421 هـ - 2000م، (4/193).

9 التَّعريفات، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الرَّيان للتُّراث بالقاهرة، بدون تاريخ، ص 214.

10 الصناعتين، ص 16.

2.1.2. خلو اللَّفظ من التَّنافر:

يَرجعُ التَّنافرُ في اللَّفظِ إلى تَألُّفه من حروفٍ متقاربةٍ متجاورةٍ في المَخْرَج؛ أو مشتركةٍ في بعض الخصائص الصَّوتيَّة؛ ممَّا يَثقُلُ معه النُّطقُ بها مجتمعةً في لفظٍ واحدٍ. وقد أدركَ اللُّغويون والبلاغيون العرب ذلك، فعدُّوا لفظَ (الهُعْخُع) في قول الأعرابي، وقد سُئِلَ عن ناقتِه: تركتُها ترعى الهُعْخُعَ[11]، كلمةً نافرةً في السَّمعِ ثقيلةً على اللِّسانِ؛ فأنكروها لذلك؛ فقال الخليل بن أحمد(ت:170هـ): "سَمِعنا كلمةً شنعاء، وهي (الهُعْخُع) فأنكرنَا تأليفَها...[12]".

لقد أرجعَ الخليل بن أحمد - وهو صاحب الملاحظات الصَّوتيَّة الرَّائدة-وصفَهم للكلمةِ بالشَّناعةِ إلى طريق تأليفها؛ لكونها بُنيَتْ من حروفٍ حَلقيِّةٍ متقاربةٍ في المَخرَج؛ هي (الهاء، والعين، والخاء)، فمخارجها على التَّرتيب أقصى الحلق، ووسطه، وأدناه؛ ولذلك جاء اللَّفظُ بها غايةً في الثِّقلِ على اللِّسانِ؛ فأُهمِلَتْ في الاستعمال. فللألفاظ في السَّمع نَغمةٌ لذيذةٌ كنغمة أوتَارٍ، وصَوتٌ مُنكَرٌ كصَوتِ حِمارٍ، ولها في الفمِ حلاوةٌ كحلاوةِ العسلِ، ومرارةٌ كمرارةِ الحنظلِ، وهي على ذلك تجري مجرى النَّغمات والطُّعوم[13].

فالمعـولُ -إذن- على فصاحة اللَّفـظ هو خلُـوه مـن التَّنافـر، بحيث تجدُ له خفَّةً على السَّمع واللِّسان. فالكلمةَ إذا انسجمتْ في تأليفها، ومتوالياتها الصَّوتيَّة خَفَّتْ على اللِّسانِ، وشَاعَتْ في الاستعمال وكُتِبَ لها طولُ البقاء.

وإذا كان التَّنافرُ مِمَّا يُخرِجُ اللَّفظَ عن دائرة الفصاحة؛ بحيث لا يخلصُ مِمَّا يشوبه من الثِّقل الذي يعتري اللِّسان عند النُّطق به، فإنَّ ظاهرةَ القلقلةِ يُناطُ بها تخليص اللَّفظ في الأداء القرآني من الثِّقل على السَّمع، وتسهيل جريانه على اللِّسان، فضلًا عن كونها تُساعِدُ على أمن اللَّبس في المعنى؛ فتُسهم بذلك في تجلية فصاحة اللَّفظ في تلاوة القرآن الكريم، وإعطائه نصوعًا صوتيًّا تألفه الأذن، وهذا ما سوف نوضحه في المبحثين الآتيين.

2.2. دور الأداء القرآني (القلقلة نموذجا) في تجلية فصاحة اللَّفظ

1.2.2. مفهوم القلقلة، ووصفها وعللها الصوتية

1.1.2.2. مفهوم القلقة

القَلْقَلَةُ شِدَّةُ الصِّياحِ، واللَّقلَقةُ: شِدَّةُ الصَّوتِ، فكأنَّ الصَّوتَ يشتدُّ عند الوقوفِ على القاف[14]؛ لأنَّه حَرفٌ ضُغِطَ عن مَوضِعهِ، فلا يُقْدَرُ على الوقوف عليه إلَّا مع صَوتٍ زَائدٍ يُشبِه النَّبرة؛ لشدَّةِ ضَغطهِ واستعلائِه وقُربِه من الحلق. ويُشبِهه في ذلك أخواتُه المذكورات معه، وهنَّ (ق، ط- ب- ج- د)[15]؛ لما فيهن من ذلك الصَّوتِ الزَّائد عند الوقوف عليهنَّ[16].

11 نوع من الشَّجرِ.

12 الإيضاح في علوم البلاغة: 23-1/22. وينظر: معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي. مادة (ه-ع -خ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1424 هـ - 2003 م. وينظر: المزهر في علوم اللُّغة: (1/193).

13 المثل السَّائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدِّين بن الأثير، تحقيق: الشيخ كامل محمَّد عويضة، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، ط1، 1419هـ - 1998م، 1/154.

14 القول السَّديد في علم التَّجويد، عبد الله بن علي أبو الوفا، دار الوفاء، ط3، المنصورة، 1424هـ - 2003م، ص 167. وينظر: دراسات في فقه اللُّغة: صبحي إبراهيم الصَّالح، دار العلم للملايين، ط1، 1379هـ - 1960م، ص 283.

15 سرُّ صِناعة الإعراب، ابن جني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت- لبنان، 2000م، ص 77.
وينظر: شرح طيبة النَّشر في القراءات، ابن الجزري، ضبطَه وعلَّقَ عليه: الشَّيخ أنس مهرة. دار الكتب العلمية، ط3، بيروت - لبنان، 1420هـ - 2000م، ص 32 - 33.
- الرِّعاية لتجويد القراءة (124). وانظر: الكنز في القراءات العشر لابن المبارك (1/169)، تحقيق: خالد المشهداني. مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة بالقاهرة، الطَّبعة الأولى 1425 هـ- 2004م.

16 الخصائص، ابن جنِّي (2/139)، تحقيق: محمَّد علي النَّجار، دار الكتاب العربي- بيروت. وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني (44)، دار المعارف بمصر، طبعة 1971م.

قال سيبويه (ت:170هـ): "من الحروف حروفٌ مُشْرَبَةٌ ضُغِطَتْ من مواضِعها فإذا وَقَفْتَ: خَرَجَ معها من الفمِ صُوَيْتٌ، ونَبَا اللِّسانُ عن موضعهِ، وهي حروف القلقلة، وذلك القاف، والجيم، والطَّاء، والدَّال، والبَاء. والدَّليل على ذلك أنَّك تقول: الحَذِقْ، فلا تستطيعُ أن تَقِفَ إلا مع الصُّوَيْت؛ لشدةِ ضغطِ الحرف، وبعضُ العرب أشدُّ صَوتًا، كأنَّهم الذين يَرومُون الحَرَكَةَ"[17].

وَرَومُ الحَرَكَة -هنا- كالإهَابَةِ بالسَّاكن نحو الحَرَكة[18]؛ حيث يُقصدُ إليها تَسهِيلًا للنُّطقِ بهذه الحروف التي ضُغِطَتْ عن مواضِعها؛ لأنَّها إذا سُكِّنَتْ ضَعُفَتْ فَاشْتَبَهَتْ بغيرها؛ فتَحتاجُ إلى ظُهور صُوَيْتٍ يُشبه النَّبرةَ حال سُكونهنَّ، وتَحتاجُ إلى زيادةِ إتمامِ النُّطقِ بهنَّ.

2.1.2.2. وصفُ القلقلة صَوتيًّا:

القلقلةُ ظاهرةٌ صَوتيَّةٌ تَحدثُ عند نُطقِ بعضِ الأصوات اللُّغويَّةِ في أثناء تلاوة القرآن الكريم، وهي عبارة عن إضَافةِ صَائتٍ قَصيرٍ جدًّا بعدَ أحدِ هذه الصَّوَامِت: (القَاف، والطَّاء، والجيم، والدَّال، والبَاء). ويتمُّ ذلك عندما تكونُ هذه الصَّوَامِتُ سَاكنةً سُكونًا لازمًا في وسط الكلمةِ أو مَوقُوفًا عليها في آخرها[19]. وقد ارتبطتْ صِفةُ القلقلةِ بهذه الحروف الخمسة (قطب جد)؛ لأنَّها صَوامتُ اِنْفجَاريَّةٌ مَجهُورةٌ.

وإذا نَظرنَا إلى ما يُقابلُ حروف القلقلة الخمسة (ق- ط - ب -ج - د)؛ وَجدنَا أنَّ (القَاف) مثلاً تُقابِلُها (الكاف)، وأنَّ (الطَّاء، والدَّال) تقابلهما (التَّاء)، ومع ذلك لا نلجأُ إلى قلقلةِ هذين الحرفين (الكاف والتاء) رغم أنَّهما انفجاريان (plosives)، ومن نفس مخارج حروف القلقلةِ تَقريبًا، إلَّا أنَّنا نجدُ لهما سُهولةً في النُّطقِ، نتجتْ من كون الحرف الانفجاري المهموس ينتهي بقدرٍ من الاحتكاك (Friction) يُلَيِّنُ النُّطقَ ويُسهِّلُه بهما، حيث يَجري النَّفَسُ معها. أمَّا حروفُ القلقلة الخمسة، فلشدتها تَحتاجُ إلى هذا الصُّوَيْتِ القَصير (حركة القلقلة)، ليُسهِّلَ جريانَ النَّفَسِ معها، ويُسهِّلَ النُّطقَ بها، فلا يثقلُ على اللِّسانِ.

ومن النَّاحية الصَّوتيَّة، فإنَّ صفةَ القلقلة عبارة عن إضَافةِ أو إقحامِ صَائِت قَصير جدًّا ليس له لون صَوتيٌّ محدَّدٌ له؛ أي لا هو بالضَّمِّ، ولا بالكسرِ، ولا بالفتحِ. وهذا الصَّوتُ المُقحَمُ يُشبِهُ الصَّوائتَ الوسطيَّةَ المركزيَّةَ، وبالأخص الشوا /ə/[20]، التي هي صفةٌ تَلحَقُ بعضًا من الأصواتِ الانفجاريَّة أو أصوات "قطب جد"، باعتبارها صَوتًا زائدًا يأتي بعد تحقيق الصَّامت من مخرجه المُعَين[21].. فقلقلةُ الطّاءِ في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً ﴾ (الكهف: 37) يختلفُ نطقُها مقلقلةً عن نطقها ساكنة غير مقلقلة، هكذا:

الجدول رقم (1): اختلاف نطق (مطفة) مقلقلة عن نطقها غير مقلقلة

﴿ **نطفة** ﴾ بدون قلقلة الطّاء	﴿ **نطفة** ﴾ بقلقلة الطّاء
not/fa/ten cvc/cv/cvc	no/ta/fa/ten cv/cv/cv/cvc

17 الكتاب، سيبويه (4/174).

18 الخصائص (2/147). وانظر: شرح طيبة النَّشر في القراءات العشر، محب الدِّين النُّوَيْري (1/243). تحقيق: مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1424هـ 2003م.

19 التَّجويد القرآني، دراسة صَوتيَّة فيزيائيَّة: محمَّد الضَّالع، دار غريب بالقاهرة، 2002، ص 142.

20 الشَّوا /ə/: المصوت المخفي: حرفٌ يُرمَزُ له بشبه حرف e مقلوبًا [ə] ويُعَبَّر به عن صَوتٍ بين الحركات خفيف يعرف بالمصوت المتوسط المركزي. يقال له الشوا في العبرية وتلفظ [wa] و[va] بالعبرية الحديثة؛ وهو اسم نقطتين عموديتين «:» تجعلان تحت الحرف العبري علامة على سكونه أو على فتحه بفتحة مشوبة بالكسر[e]. معجم علم الأصوات: محمَّد علي الخولي، مطابع الفرزدق التِّجارية بالرياض، 1982م، ص 103.

21 التَّجويد القرآني، دراسة صَوتيَّة فيزيائيَّة، ص 145. وانظر: علم اللُّغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السَّعران. دار الفكر العربي بالقاهرة، ط2، 1997م، ص 134.

نلاحظ -هنا- زيادة الحركة القصيرة بعد الطَّاء المقلقلة، ويظهر ذلك في تغير التَّركيب المقطَعي للكلمة، مِمَّا أعطَى للكلمة سهولةً في النُّطق وخفَّةً على اللِّسان؛ حيث خلَّصتَها هذه الحركةُ القصيرةُ من الثِّقلِ عن طريق الهَرب من المقطع المُغلَق ((cvc إلى المقطَع القَصير المفتوح cv)) الأسهل نُطقًا.

3.1.2.2. العللُ الصَّوتيَّة للقَلقَلة:

السُّؤالُ المطروح -هنا- لماذا نَعْمَدُ إلى القلقلةِ عند تلاوة القرآن الكريم، بحيثُ يَكونُ الاضْطِرَابُ والتَّحرِيكُ في حروفِها؟

تكمن الإجابةُ عن هذا السُّؤال في صِفات هذه الحروف الصَّوتيَّة نفسها، فهي حروفٌ مجهورةٌ شديدةٌ، والجَهرُ يَمنَعُ النَّفَسَ أن يجريَ معها؛ لأنَّه أُشْبِعَ الاعتِمَادُ في مَوضِعها، والشِّدةُ تَمنَعُ صَوتَها أن يَجرِيَ، فلمَّا اجتمعَ لها هذان الوصفَان احتَاجَتْ إلى كُلْفةٍ في بَيانِها، فتخلَّصَت العَربُ من هذه الكُلْفةِ بالقلقلةِ من خلال هذا الصَّائِت المُخْتَلَس الذي أتى لتَسهيل عملية التَّلفظ الصَّوتي، وتيسير النُّطق بالكلمة عن طريق إقحام هذا الصَّائت القَصير الذي يعمل على الهرب من المقاطع المغلقة (cvc)[22] إلى المقاطع القصيرة المفتوحة (cv) الأسهل نُطقًا، وذلك عن طريق إقحام الشَّوا (ə)، هذا فضلاً عن تخفيف تَوترِ الصَّامِت الانفجَاري، والمحَافظة على جَهر المجهور، وهَمس المهموس[23].

وإذا كان هدف علم التَّجويد هو المحافظةُ على خصوصية الأداء القرآني-باعتبارها أحد مظاهر إعجازه- فإنَّ ظاهرة القلقلة أحد مظاهر هذه الخصوصية الصَّوتيَّة في الأداء القرآني التي تساعدُ على عدم حدوث التَّماثل الصَّوتي (Assimilation) الذي يؤدي -حتمًا- إلى تغيير المعنى في أثناء النُّطق؛ ولذلك يرى الدكتور كمال بشر أنَّ "وجوب إتباعِ هذه الحروف -حروف القلقلة- بصُوَيْتٍ أو بحَركةٍ خَفيفةٍ عندما تكون ساكنة، مَرجِعه إلى أنَّ في هذا النُّطق تحقيقًا لخواص هذه الحروف، أي تحقيقًا للانفجَارِ والجهرِ، فعدم وجود هذا الصُّويْت ينشأُ عنه تقليلُ صِفتي الانفجار والجهر معًا[24]، مِمَّا يجعلها تشتبه بغيرها من الحروف التي تشتركُ معها في المَخرَجِ أو الصِّفة، الأمر الذي يبعدها عن الفصَاحَة باعتبار تقارب مَخارج الحروف، أو الاشتراك في بعض الخَصائِص الصَّوتيَّة، كالجَهرِ أو الهَمس، وهذا عائدٌ إلى كون هذه الأصوَات التي تعبِّر عنها هذه الحروف تثقلُ على اللِّسانِ؛ لتَجاورها في المخرج أو تشابهها في الصِّفة، ممَّا يجعل الكلمة تُوصف بالتَّنافر، فتخرج عن دائرة الفصَاحة.

القلقلةُ -إذن- ظَاهرةٌ صَوتيَّة يُحترزُ بها عن تقرِيبِ صَوتٍ من صَوتٍ على حدِّ تعبير ابن جني[25]؛ لئلا يشتبه في النُّطق صَوتٌ بصوتٍ آخر يشترك معه في المخرج؛ وذلك تجنبًا للمماثلة الصَّوتيَّة (Assimilation)" التي تعني إحلال صَوتٍ محل صَوتٍ آخر تحت تأثير صوتٍ ثالثٍ قريبٍ منه في الكلمة أو الجملة، ويمكنها أن تتسع؛ لتشمل تفاعل صوتين متواليين، ينتج عنهما صَوتٌ وَاحدٌ مختلف عنهما[26].

---

22 ما يطلق عليه في علم الأصوات الحديث المقاطع المغلقة cvc هو ما سمَّاه علماء التَّجويد " بإشباع الاعتماد على الموضع مع الشِّدة التي تمنع صوتها أن يجري، أو ما يعبرون عنه بقولهم: إنَّه حَرفٌ ضُغِطَ عن مَوضِعهِ". انظر: الرِّعاية في تجويد القراءة، لمَكي بن أبي طالب، ص 124.

23 التَّجويد القرآني، دراسة صَوتيَّة فيزيائيَّة (146).

24 علم اللُّغة العام (الأصوات) كمال بشر،(116)، دار المعارف بمصر 1975م.

25 الخصائص (2/139). وانظر:إعجاز القرآن للباقلاني (44)، دار المعارف بمصر 1971م.

26 علم اللُّغة العام (الأصوات) (161).

وتقضي قواعد التِّلاوة الصَّحيحة بضرورة الاحتراز من وقوع المماثلة الصَّوتيَّة في الحروف المُقلقَلة؛ لئلا تشتبه بغيرها من الحروف التي تُجاورها أو تَشتركُ معها في بعض الصِّفات، تجنبًا للبس في المعنى المقصود من اللَّفظ، وإلا خَرَجَ اللَّفظُ -حال المماثلة الصوتية-عن دائرة الفصَاحةِ التي تعني الإبانة والوضوح، والظُّهور، وخلو اللَّفظ ممَّا يشوبه.

ومن ذلك " الجيم التي كالشِّين نحو قولهم: (خَرَشتَ) في (خَرَجتَ) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: 149)، فإنْ لم تُقلقل الجيم في قوله تعالى: (**خَرَجْتَ**) فلا يبعد أن تشتبه وتتماثل صَوتيًّا مع الشِّين التي تشتركُ معها في المخرج، فتصير: (خَرَشْت). ولذلك تأتي القلقلةُ- في مثل هذه المَواضِع- ليُحْتَرز بها عن حدوث نوعٍ من التَّماثل يُفقدُ الحرفَ صفتَه ويعطيَه صِفةً أخرى ليستْ له، فيصير غيرَ نفسهِ، الأمر الذي يؤدي إلى اضطرابِ الفَهمِ لدى السَّامع؛ ومن ثم تَكمنُ عِلَّة القلقلةِ في الاحترازِ بها عن هيمنةِ الصَّوت الأقوى على الصَّوت القوي، إذ يحلُّ الأقوى مَحلَّ القوي، ويتغلَّب عليه فيُصوَّت به دونه، لما لهذه الهيمنة من تأثيرٍ سَلبِي في أداء المعنى المراد، حيث يُؤدي تغير الصَّـوت داخل بنية الكلمة إلى تغير معناها بالضرورة.

2.2.2. دور القلقلة في تجلية فصاحة اللَّفظ القرآني

1.2.2.2. العلل الصَّوتيَّة في قلقلة حرف (القاف).

تَخرجُ القَافُ من المَخرج الأوّل من مَخارِج الفَمِ ممَّا يلي الحلق من أقصى اللِّسان وما فوقه من الحَنك. وهي حَرفٌ مُتمَكِنٌ قَويٌّ؛ لأنَّها من الحروف المجهورةِ الشَّديدة المستعليةِ[27] التي أُشْبِعَ الاعتمادُ على موضِعها، فمُنِعَ النَّفَسُ أن يَجري معها[28].

وتُقلقلُ القافُ عند سُكونها سُكونًا لازمًا مع مجموعة من الحروف، منها:

البَاء، والتَّاء، والرَّاء، والسَّين، والصَّاد، والضَّاد، والنُّون، والهَاء...؛ ونكتفي-هنا- بذكر أمثلة للعلل الصَّوتيَّة لقلقلة القاف السَّاكنة مع بعض هذه الحروف، من دون باقي الحروف الأخرى.

- **قلقلة القاف مع التَّاء:**

تُقلقلُ القافُ السَّاكنة مع التَّاء، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ (غافر: 28)، والعِلَّة الصَّوتيَّة في ذلك هي:

أ. الاحتراز عن تقريب صوتِ (القَاف) من صوتِ (الكَاف)؛ لأنَّهما صوتان متقاربان في المَخرج، فلولا الجَهرُ والاستِعلاءُ اللذان في القَافِ لكانتْ كَافًا، ولولا الهَمْسُ والتَّسفلُ[29] اللذان في الكاف لكانت قافًا؛ لقرب مخرجيهما، ولذلك لا تأتلفُ القافُ والكافُ في كلمةٍ إلا بحَاجِزٍ بينهما، ولا نجدُ قافًا تُلاصِق كَافًا في أصل كلمة ألبتة، ومن ثَمَّ قُلقلت القاف -هنا- لئلا تشتبه بالكاف عند اللَّفظ بها، فيُتَوَهَّمُ في اللفظ (أتكتلون) بدلًا من ﴿ **أَتَقْتُلُونَ** ﴾.

27 الاستعلاء لغةً: العلو والارتفاع. واصطلاحًا: ارتفاعُ جزء كبير من اللِّسان عند النُّطق بأغلب حروفه إلى الحنك الأعلى. وحروف صفة الاستِعلاء سبعة، جمعها الإمام ابن الجزري في قوله(خُصَّ ضَغْط قَظْ). وهذه الحروف السبعة هي التي تُفخَّم قولا واحدًا، وارتفاع معظم اللِّسان يكون عند النُّطق بالطَّاء، والصَّاد والضَّاد والظَّاء، ثم يكون أقل عند القاف، ثم يضعف عند الخاء والغين. وقيل: سُمِّيَت مستعليةً؛ لخروج صوتها من جهة العلو وكل ما حلَّ في عالٍ فهو مستعلٍ. انظر: نهاية القول المفيد، ص 49.

28 انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (44)، والتَّمهيد لابن الجزري (138)، والرِّعاية لمكي (171)

29 الاستفال: لغة، الانخفاض. واصطلاحًا، اتجاه ضغط الحرف عند النُّطق به إلى الفك السُّفلي، وهو عكس الاستعلاء.

ب. الاحترازُ عن تقريبِ صَوتٍ من صَوتٍ؛ من خلال قلقلة القافِ السَّاكنة المجاورة للتَّاء -هنا- لأجل بيان الهَمس الذي في التَّاء المجاورة للقاف؛ لئلا تشتبه بالدَّال عند النُّطق، فلولا الهَمْسُ الذي في التَّاء لكانتْ دَالاً؛ لأنَّ مَخرجَهما واحدٌ، فضلا عن كونهما يشتركان في صِفتي الشِّدَّة والانفتاح[30]؛ ولولا قَلقلةُ القاف لخفي الهَمْسُ الذي في التَّاء، فتشتبه في النطق بالدال، وربما توهم السامع أن اللَّفظَ بها هو: (أَتَقْدلُونَ) بدلًا من ﴿ أَتَقْتُلُونَ ﴾، فيفسد المعنى لفساد اللَّفظ به؛ نتيجة للتَّماثل الصَّوتي الذي نتج عن نطق التَّاء دالًا، وهكذا تعملُ القلقلةُ -هنا- على تحقيق فصاحة اللَّفظ القرآني؛ ليبقى وَاضِحًا نَاصِعًا في السَّمعِ والفَهم، غير مُلتَبِسٍ ولا مُشْكلٍ على السَّامع، بعيدًا عن التَّنافر؛ لأنَّه لا يَخرجُ حَرفٌ من مَخْرَجٍ غير مَخرَجِهِ؛ إلا بتغيُّرِ لفظهِ ومعناه[31].

ج. التَّخلص من الكُلفةِ والثِّقل في بيان اللَّفظ بالقاف؛ لأنَّ القافَ مجهورةٌ شديدةٌ، والجهرُ يمنعُ النَّفَسَ أن يَجريَ معها؛ والشِّدَّة تمنعُ صوتَها أن يجريَ، فلمَّا اجتمع لها هذان الوصفان، احتاجت إلى كُلْفَةٍ في بيانها حال سكونها، فتخلَّصت العَربُ من هذه الكُلفَةِ بإتباعِها بِصُوَيْتٍ أو حَرَكَةٍ خَفيفةٍ تمثَّلتْ في صَوتِ القلقلةِ الذي خَلَّصَها من الثِّقلِ وسهَّل جريانها على اللِّسانِ حال اللَّفظ بها، فخلت من التَّنافر الذي يرجعُ إلى تألف الكلمة من حروفٍ يَصْعُبُ نطقُها مجتمعةً في لفظٍ واحدٍ، والذي هو أحد عيوب اللَّفظ المفرد الذي يُخرجه عن دائرة الفصَاحةِ. ومن ثَمَّ عملت القلقلة على تخفيفِ زمن التَّرددِ في الحرف المُقلقَل، ممَّا أدى إلى التَّوفير والاقتصادِ في طاقة النُّطق، وهو ما يَجعلُ القارئ على قَدرٍ كبيرٍ من الأريحيةِ التي تُهيئه لحلول السَّكينةِ التي تَتَناسب مع أريحية الأداء القرآني، فضلًا عن كونها- أي القلقلة-تساعدُ على توزيع وانتظام طاقةِ الأصْوَات المُقَلْقَلَة في القناةِ الصَّوتيَّةِ، فيشعرُ القارئُ بتنسيق عملية النُّطق، فيألف القلقلةَ ويميل إليها، ويجري بها في منطقه بأريحيةٍ وسهولةٍ[32].

- **قلقلة القاف الساكنة مع السِّين:**

تُقلقلُ القافُ عند سُكونِها سُكونًا لازمًا مع السِّين، كما في قوله تعالى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف: 49)، والعِلَّة الصَّوتيَّة من ذلك هي:

أ. بيانُ الهَمْسِ الذي في السِّين؛ حتَّى لا تشتبه بالزَّاي عند اللَّفظِ بها، إذْ لولا الهَمْسُ الذي في السِّين لكانت زَايًا، ولولا الجهر الذي في الزاي لكانت سينًا، فاختلافُهما في السَّمعِ بالجَهرِ والهَمْسِ[33]، ومن ثَمَّ ربما يتوهم السَّامعُ أنَّ القارئ نَحا بالسِّين نحو الزاي فيسمع اللَّفظ بها (أَقزَمْتم) بدلا من(أَقْسَمْتُمْ)، فيفسد المعنى لفساد اللَّفظ، وهو أبعد شَيْءٍ عن الفصَاحَةِ التي تَعني في أبسط معانيها الوضوح والإبانة وخلوص الشَّيْء ممَّا يشوبُه.

ب. تعملُ القلقلةُ على تحقيق اللَّفظِ بالقَاف؛ لئلا تُمازِجُ الكَافَ؛ لأنَّهما متقاربان في المَخرَجِ، ولذلك فقد تمازج القاف الكاف إن لم تُقلقل، فيتوهم السَّامعُ أنَّ اللَّفظَ (أكسمتم)، بدلًا من ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾. ولذلك نبَّه علماءُ اللُّغةِ على أن هذه الحروفَ من الأصواتِ غير المُستَحسَنةِ في لغةِ العَربِ، فذَكَرَ ابنُ فارس (ت :395هـ): أنَّ بني تميم يُلحِقُون القافَ باللَّهاةِ حَتَّى تَغْلُظ جدًّا فيقولون: "القوم"؛ فتكون بَيْنَ الكَاف والقَاف، وهذه لغةٌ فيهم[34].

30 الانفتاح لغةً: الافتراق، واصطلاحًا، عدم انحصار الصَّوت بين اللِّسان والحنك الأعلى عند النُّطق بالحرف المنفتح، وعكسه الإطباق. انظر: الرَّعاية لمكي (133).

31 انظر: الرِّعاية لمكي (124)، وجمال القُرَّاء للسخاوي (661)، والتمهيد لابن الجزري (138)، وعلم اللُّغة العام (الأصوات) (161).

32 انظر: حروف القلقلة، دراسة فيزيائيَّة مخبريَّة (209 - 213)، د. سمير شريف استيتية، بحث بمجلة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد العاشر رجب 1434هـ - مايو: 2013م.

33 الرعاية، لمكي ص 241.

34 الصَّاحبي في فقه اللُّغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها (1/30). دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1418هـ - 1997م.

ج. تعمل القلقلةُ على تسهيل اللَّفظ بالقَاف؛ لأنَّه حرفٌ يُحْفَزُ في الوَقفِ، ويُضْغَطُ عن موضعِهِ، فلا نَستَطِيعُ الوقوفَ عليه إلا بصَوتٍ يُسهِّلُ اللَّفظَ بهِ، هو صَوتُ القلقلةِ، فيسهُل النُّطقُ به، ويسلم من الثِّقل والتَّنافر. وما قيل في قلقلةِ القَاف مع السِّين يُقال في قلقلتها عند الصَّاد، إذْ السِّين والصَّاد من مخرجٍ واحدٍ، وهما يشتركان في الهَمْسِ.

- **قلقلة القاف الساكنة مع الهاء:**

تُقلقلُ القافُ عند سُكونِها سُكونًا لازمًا مع الهَاء، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (الضُّحى:9). والعِلَّة الصَّوتيَّة من ذلك هي:

أ. المحافظة على صِفة الهَمْسِ والرَّخاوة اللَّتين في الهاء؛ لئلا تنقلبَ إلى هَمزةٍ؛ ذلك لأنَّ الهاء حرفٌ خَفِيٌّ مَهتُوتٌ (ضعيف)، فلولا الهَمْسُ والرَّخاوة اللَّتان في الهاءِ -مع شدة الخَفاء- لكانت همزةً، وكذلك لولا الجَهرُ والشِّدةُ اللَّتان في الهمزةِ لكانت هاءً، إذ المَخْرَجُ واحدٌ، وإنَّما فَرَّق بين هذه الحروفِ في السَّمعِ اختلافُ صِفاتها وقوتُها وضَعفُها، وإلا لما اختلفَ في السَّمعِ حرفان من مَخرَجٍ وَاحدٍ. فهذه " صفاتٌ للحروف وطِبَاعٌ جَبلَهَا اللهُ - تباركَ وتعالى- عليها؛ ليُفْهَمَ الخِطَابُ، ويَظْهَرَ المُرَادُ من المُتكلم، فلولا اختلافُ هذه المخَارجِ واختلاف هذه الصِّفات... لم يُفهم الخطابُ، ففي ذلك عِبرةٌ لمَن تَفهَّمَ وتَدبَّرَ قدرةَ اللهِ في ذلك"[35]، ومن ثم تحقق قلقلة القاف مع الهاء أمرين:

- التَّخلص من الكُلفَةِ والثِّقل في بيانِ اللَّفظ بالقاف؛ لكونها مجهورة شديدة، مما يكسب اللفظ القرآني خفة وسهولة في النطق.

- المحافظة على صفة القاف لئلا تشتبه في اللفظ بالكاف فتصير من الحروف غير المستحسنة، وهو مما يجلي فصاحة اللَّفظ القرآني.

2.2.2.2. العلل الصَّوتيَّة في قلقلة حرف (الطَّاء):

تَخرُجُ الطاء من المَخرَجِ الثَّامِنِ من مَخارجِ الفَمِ من طَرفِ اللِّسانِ وأصولِ الثَّنايا العُليا، وهو مَخرج التَّاء والدَّال؛ ولذا وجبَ التحفُّظُ في اللَّفظِ بها؛ لئلا تشتبه بهما، فلولا الإطباقُ الذي في الطَّاء؛ لصَارتْ دالاً، ولولا الجَهرُ الذي في الدَّال لصَارتْ تَاءً. والطَّاءُ حرفٌ مَجهُورٌ، مُسْتَعلٍ، مُطْبَق، فيلزمُ إنعامُ بيانهِ وبسطُ اللِّسانِ به، كقوله تعالى: ﴿ نُّطْفَةٍ ﴾ (النحل:4)، ﴿ قِطْرًا ﴾ (الكهف:96)، وهكذا... [36].. وتُقلقلُ الطَّاءُ السَّاكنةُ بإلصَاقِ طَـرف اللِّسان بأصـول الثَّنايا العُليا، ثم يَنفكُّ طَرفُ اللِّسان بسرعةٍ وقوةٍ عن أصولِ الثَّنايا العُليا، فيهتزُّ الحَرفُ ويرتجُّ، مُحدِثًا حركةً قصيرةً متمثلة في نبرةَ القلقلة.

وتُقلقل الطاء عند سكونها مع مجموعة من الحروف، مثل: الرَّاء، والغين، والفاء، واللام، والميم.

- **قلقلة الطَّاء السَّاكنة مع الفاء:**

تُقلقلُ الطَّاءُ عند سُكونِها مع الفاء في قوله تعالى ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ (الكهف: 37)، والعِلل الصَّوتيَّة من ذلك هي:

أ. الاحترازُ من تَقريبِ صَوتٍ من صَوتٍ؛ لئلا تشتبه الطَّاء بالتَّاء، أو بالدَّال؛ إذ لولا الإطباقُ، والاستعلاءُ، والجهرُ في الطَّاء لكانتْ تاءً؛ لأنَّهما في الشِّدةِ سواء، فضلا عن كونهما من مَخرَجٍ وَاحدٍ؛ ولذا

35 التَّمهيد في علم التَّجويد لابن الجزري (127).

36 التَّحديد في الإتقان والتَّجويد، لأبي عمرو الداني (139)، تحقيق الدكتور غانم قدوري حمد. مكتبة دار الأنبار بغداد، ط1، 1407هـ- 1988م. وانظر: الرِّعاية لمكي (198).

قُلقلتْ الطَّاء -هنا- لئلا تشتبه بالتَّاء عند اللَّفظِ بها؛ ولئلا يتوهم السَّامعُ أنَّها نُطِقت (من نتفةٍ) بدلًا من ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، لا سيَّما أنَّ الحروفَ يُبدَلُ بعضُها من بعضٍ للتناسبِ والقُرب الذي بينها[37]. وأنَّ مثل هذا ممَّا يُسمع من العَجم عند تلاوتهم للقرآن؛ لفقد الطَّاء في لسانهم، ولذلك عدَّ علماء اللُّغة الطاء التي كالتاء من الأصوات غير المستحسنة لأنَّها تخرج باللَّفظ عن دائرة الفصاحة، بما تُحدثه من لَبسٍ في المعنى لدى السَّامع.

ب. التَّخلصُ من الكُلفَةِ في بيان اللَّفظ بالطَّاء السَّاكنة؛ لشدتِها وجهرِها وإطباقِها واستعلائِها؛ لأنَّه لما اجتمَعَتْ لها كلُّ هذه الصِّفات احتَاجَتْ إلى كُلفةٍ في بيانِها عند اللَّفظِ بها ساكنةً، فيثقلُ على اللِّسان النُّطق بها، فيعمد القارئ هنالك إلى التَّخلصِ من هذه الكلفةِ والثِّقل عن طريق إتباعها بحَركةٍ قَصيرةٍ تتمثَّل في صُوَيْتِ القلقلةِ، فيخلُص معها من الثِّقل الذي يبعد اللفظ عن دائرة الفصاحة. وهكذا يتوفَّر (للطّاء) حال قلقلتها- في تلاوة القرآن الكريم- من الصِّفات ما يجعلُها من أقوى الحروف؛ لتحقق صفات الشِّدة، والإطباق، والاستعلاء، والجهر فيها، ممَّا يجعلُها بمنأى عن أن تشتبه بغيرها من الحروف التي تشتركُ معها في المَخرَجِ أو الصِّفةِ، وهو ما يحققُ للَّفظِ القرآني -حال التِّلاوة- أقوى درجات النَّصاعة الصَّوتيَّة والفصاحة.

3.2.2.2. العلل الصَّوتيَّة في قلقلة حرف الباء:

تَخرجُ الباء من المَخرَجِ الثَّاني عشر من مَخارجِ الفَمِ مِن بين الشَّفتين مع تلاصقهما، وهو حرفٌ قويٌّ مَجهورٌ شَديدٌ. وتُقلقلُ الباءُ السَّاكنةُ مع مجموعة من الحروف، منها: التَّاء، والرَّاء، والحَاء والدَّال، والزَّاي، والصَّاد، والنون، والعَين، والقَاف، والكَاف... إلخ.

- قلقلة الباء السَّاكنة مع الكاف:

تُقلقلُ الباءُ الساكنةُ مع الكَاف، كما في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ (الواقعة: 36). والعِلَّة الصَّوتيَّة من ذلك هي:

أ. المحافظةُ على صَوت البَاء؛ حتَّى لا يشتبه بصَوت الميم؛ لاشتراكهما في المَخرَجِ وبعض الصِّفات كالجَهرِ والشِّدةِ؛ ولذلك لولا الغُنَّةُ التي في الميم وجريان النَّفَسِ معها لكانتْ باءً؛ ولأجل تقاربهما وتشابههما أَبدَلت العربُ إحدَاهما من الأخرى، فقَالتْ في اللَّون: أرمد، وأربد، وهو لونٌ إلى الغَبرَةِ، وقالوا للسَّحَائبِ البِيض الرِّقاق: "بياتُ مَخْرٍ"، و"بياتُ بَخْرٍ"، ويُقالُ: أرمَى فلانٌ على فلانٍ، وأربَى عليه، إذ زَادَ عليه، ولهذا نظائر كثيرةٌ[38].

ب. ساعدت القلقلةُ على ترقيق الكاف- لا سيَّما وقد جاء بعدها ألفٌ- احترازًا عن تقريبها من القاف التي تتقاربُ معها في المَخرَجِ؛ لئلا يتوهم السَّامعُ أنَّ اللَّفظَ هو (أبقارًا) بدلًا من: (**أبكارا**)، وهذا كله من قبيل المحافظة على صوتيات اللَّفظ القرآني، وتخليصه ممَّا يشوبُه؛ لئلا يلتبس المعنى على السَّامع؛ ولذلك قال علماء التَّجويد: "إذا وقعتْ الكاف في موضع يجوزُ أن تُبدلَ منها قافًا وَجَبَ بَيانُ الكاف؛ لئلا تخرج من لغةٍ إلى أخرى[39]". ومن ثمَّ قُلْقِلَتْ الباءُ السَّاكنة في هذا الموضع محافظةً على صِفتي الهَمْسِ والاستفال اللتين في الكاف؛ لئلا تشتبه بالقاف، فتُبدل منها؛

37 الرِّعاية في التَّجويد لمكي (216).

38 الرِّعاية لمكي (229). وانظر: التَّمهيد لابن الجزري (109 - 110).

39 التَّمهيد في علم التَّجويد لابن الجزري (140).

ولذلك لا تجدُ قافًا تُلاصِقُ كافًا من أصلِ كلمةٍ البتة، فلا يأتلفان في كلمةٍ إلا بحَاجزٍ بينهما[40]؛ لئلا تُبدل إحداهُما من الأخرى. هذا فضلًا عن التَّخلص من الكُلفة في بيان اللَّفظ بالباء؛ لكونها مجهورة شديدة، وذلك عن طريق الحركة القصيرة المتمثلة في صُويت القلقلة. وتُقلقَلُ الباءُ قلقلةً كبرى إذا سكنَتْ سُكونًا عارضًا؛ وذلك بالوقف عليها مخفَّفةً أو مشدَّدةً، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران:19) وأعلاها مرتبةً المشدَّد الموقوف عليه في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:1).

وتكون القلقلةُ في السَّاكن المخفَّف الموقوف عليه أخف من قلقلة السَّاكن المشدد الموقوف عليه؛ بحيث يُنطق بصورةٍ سريعةٍ لارتداده وعدم الركون فيه إلى مَخرج الحرف المُقلقل، فعند قلقلة حرف الباء المخفف - مثلا - تُفتح الشفاة بمجرد إطباقها وإلَّا تحوَّلتْ إلى باء مشدَّدة؛ مِمَّا يؤدِّي إلى تحول صورة اللَّفظ. أمَّا قلقلة الحرف المشدَّد الموقوف عليه؛ فتؤدَّى بصورةٍ أبطأ؛ حيث يكون الركون فيه إلى المَخرَج أوضح، مِمَّا يحققُ أعلى درجات النُّصوع الصَّوتي في الحرف المشدد الموقوف عليه[41]..

4.2.2.2. العلل الصَّوتيَّة في قلقلة حرف الجيم:

تَخرجُ الجيم من وسط اللِّسانِ بينه وبين وسط الحنك من مَخرَج الشِّين، وهي مَجهورةٌ، شَديدةٌ، مُنفتحةٌ، مُقلقلةٌ، وهي حرفٌ قويٌّ؛ لجَهرِها وشِدتِها، فإذا نَطَقتَ بها فَوفِّها حقَّهَا من صِفَاتِها[42]. وتُقلقلُ الجيمُ السَّاكنةُ مع مجموعةٍ من الحروفِ منها: التَّاء، والرَّاء، والزَّاي والسِّين، واللام، والميم، والواو، والنُّون، والهَاء... إلخ.

- قلقلة الجيم السَّاكنة عند التَّاء:

يَنبغي أن نتحفَّظَ في بيانِ اللَّفظِ بالجيم السَّاكنةِ مع التَّاء، وإلَّا صَارتْ الجيمُ (شِينًا)؛ لما بين التَّاء والشِّين من الهَمسِ، نحو قوله: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (القلم : 50)، ومن ثَمَّ يجبُ بيانُ صَوتِ الجيم، وإظهار جهرِها؛ لئلا ينالها شَيْءٌ من صَوت (الشِّين)؛ لأنَّهما من مَخرَجٍ وَاحدٍ[43]. فإنْ لم يُتحَفَّظْ في بيانها نَحَتْ نَحو الشِّين عند النُّطق بها، فتصير (فَاشتَبَاه) كما ينطقها بعضُ العَامَّة بدلًا من: (**فَٱجْتَبَٰهُ**)؛ ولذلك نَبَّه علماءُ التَّجويدِ على ضرورة إظهار الشِّدة التي للجيم عند اللَّفظِ بها.

كما ذَكَرَ علماءُ اللُّغة والبلاغة أنَّ هناك أصواتا لا يُستحسَنُ النُّطق بها عند تلاوة القرآن الكريم؛ لأنَّها غير فَصيحة، فذكرَ ابنُ سنان الخفاجي (ت :466هـ) في سرِّ الفصاحة أن الأصوات التي لا تُستَحسَنُ ثمانية، وذكرَ منها: "الجيم التي كالشِّين نحو قولهم: (خَرَشتَ) في (خَرَجتَ)، والطَّاء التي كالتَّاء كقولهم: (تَلَب) في (طَلَب)...[44]"؛ من أجل ذلك اهتمَّ علماءُ التَّجويد بالحفاظ على فصاحة ألفاظ القرآن الكريم؛ فقالوا بضرورة إعطاء كل حرف حقه (بإخراجه من مخرجه الصَّحيح) ومستحقه (بإعطائه صفاته التي تخصه)؛ لئلا يشتبه بغيره؛ دَرءًا للحنِ في القراءة، الذي أخذ يفشو في لِسَانِ العَربِ بتأثيرٍ من مخالطةِ العَجَمِ.

ومن الأصوات التي لا يُستحسَنُ النُّطقُ بها كذلك الجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل: (ركل)، والجيم التي كالشِّين نحو قولهم في: (اجتمعوا)، (اشتمعوا) وهذا كله يدخل في باب المماثلة الصَّوتيَّة التي أشرنا إليها آنفًا. ومن ذلك قوله تعالى: (حَاجَجْتُمْ- خرجتم - اجتمعوا- يجحدون- الأجداث...).

40 الرِّعاية في التَّجويد لمكي (173).

41 انظر: الجامع في تجويد قراءة القرآن الكريم: كامل المسيري، دار الإيمان، الإسكندرية، 2005م، ص 148.

42 انظر: التَّمهيد لابن الجَزَري (115)، والرِّعاية لمكي (176).

43 التَّحديد في الإتقان والتَّجويد لأبي عمرو الدَّاني، ص 132.

44 سرُّ الفصاحة (29)، دار الكتب العلمية، الطَّبعة الأولى 1402هـ - 1982م.

كذلك يجبُ الاحترازُ عند نطق الجيم السَّاكنة؛ لئلا تنقلبَ إلى دَالٍ، كما هو الحالُ في بعض اللَّهجَات غير الفَصيحة، التي تَقلب تَاء اِفْتَعَلَ دَالًا مع الجِيم، فيقال: (ادتمعوا)، في(اجتمعوا)، كما هو الحال في بعض لهجات صعيد مصر.

وهكذا تأتي القلقلةُ في مثل هذه المواضع للمحافظةِ على فصَاحَةِ اللَّفظِ القرآني؛ فتخلصه مِمَّا عسى أن يشوبَ وضوحه، وتمنعه من أن تدخلَه أصوَاتٌ غير مُستَحسَنة، ليبقى فَصِيحًا خَالِصًا مِمَّا يشوبه أبدًا.

5.2.2.2. العِلل الصَّوتيَّة في قلقلة حرف الدَّال:

تَخرجُ الدَّال من مَخرَجِ التّاء؛ من المَخرَجِ الثَّامِنِ من مَخَارِجِ الفمِ من طَرفِ اللِّسانِ وأصولِ الثَّنايا العليا[45]، وهي حرفٌ قويٌّ؛ لأنَّه مَجهورٌ شَديدٌ كالطَّاءِ، ولولا التَّسفُّلُ والانفتاحُ اللَّذانِ في الدَّالِ لكانتْ طاءً، ولولا الإطباقُ والاستعلاءُ اللذان في الطَّاءِ لكانتْ دَالاً؛ وإنَّما فَرَّقَ بينهما في السَّمعِ اختلافُ بعضِ الصِّفاتِ لا غير[46]. ومن ثم إذا سُكِّنتْ الدَّالُ، فلا بدَّ من قَلقلتِها وبيان شِدتها وجَهرها[47]. وتُقلقلُ الدَّالُ الساكنة مع مجموعةٍ من الحروفِ، منها: الرَّاء، والحَاء، والخَاء، والقَاف، والفَاء، الميم، والنُّون...إلخ.

• قلقلة الدَّال السَّاكنة مع النون:

إذا سكنت الدَّال وأتى بعدَها نونٌ وَجَبَ أن تُبَيَّنَ الدَّال، وأن يُمكَّنَ جهورها، ولا يُتسَاهَلُ في ذلك؛ لئلا تخفى عند النون، فتصير غُنَّةً مُدغَمةً في النون[48]؛ لسكونها واشتراكهما في الجهر، فضلا عن تقارب مخرجيهما، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ (البقرة: 51)، وقوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ (البقرة: 61)، الأمر الذي يحقق للفظ القرآني نَصَاعةً في الصَّوت وقوةً في الإسماع حال التِّلاوة، فلا يشتبه بغيره، وتلك أحد وجوه فصاحة اللَّفظ.

• قلقلة الدَّال السَّاكنة مع حروف (ح، خ، ر، ق، ف):

تُقلقل الدَّالُ السَّاكنةُ مع (الحاء، والخاء، والرَّاء، والقاف، والفاء)، ويجِبُ أن يُتعمَّلَ في بيانِ اللَّفظ بالدَّال وجهوره وإلا صارت تاءً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ (النَّصر:2) وقوله تعالى: ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: 124)، فلو لم يُتَحفَّظْ في اللَّفظِ بالدَّالِ السَّاكنةِ عند الخاء لانْقَلَبَتْ تَاءً ونُطِقَتْ هكذا: (يَتخُلُونَ)، إذ لولا الجَهرُ الذي في الدَّال لكانتْ تاءً؛ لأنَّهما من مَخرَجٍ وَاحدٍ، ولولا الهَمْسُ الذي في التَّاء لكانتْ دَالًا[49]، ومن ثَمَّ تأتي القلقلة -هنا- لإعطاء حرف الدَّال حقَّه ومُستَحقَه؛ بحيث يَخرُجُ من مَخرَجِهِ الصَّحيح، ويُعطَى صِفتَه التي له، وهي الجهر؛ لئلا يلتبس بالتَّاء التي تشترك معه في المَخرَج. وكذلك قلقلةُ الدَّال قلقلةً كبرى حال سكونها سكونًا عارضًا، كما في الوقوف على:(أَحَدْ - الصَّمَدُ - يَلِدْ - يُولَدْ - أَحَدْ) في سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: 1-4). حيث ساعدت القلقلةُ -هنا- في الاحتراز عن تَقريبِ صَوتٍ من صَوتٍ له الصِّفة نفسها أو المَخْرَج نفسه، فلفظُ (أَحَدْ) يُقلقل عند الوقف على الدَّال؛ لئلا تشتبه الدَّال بالتَّاء، في حين أن نفس اللَّفظ إذا تحركتْ فيه الدَّال بالفتح منونةً في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: 110) فلا تقلقل؛ لأنَّ الوقوف يكون على ألف التَّنوين، وليس على الدَّال صاحبة الحركة، ومن ثمَّ لم تشتبه الدَّال بالتَّاء ولا بغيرها. في

45 انظر: الرِّعاية لمكي (201)، والتَّمهيد لابن الجَزَري (121).

46 الرِّعاية لمكي (201).

47 التَّمهيد لابن الجَزَري (121).

48 التَّحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو الدَّاني (140 - 141).

49 الرِّعاية لمكي، ص 241.

حين أنَّ الدَّالَ إذا لم تُقلقل حال الوقوف عليها - كما في سورة الإخلاص- ربَّما اشبهتْ في السَّمع بالتاء؛ فتُسمع (أحت - لم يلت...) لأنَّهما من مَخرَجٍ واحدٍ، وربَّما توهم السَّامعُ أنَّ القارئ لم يلفظْ الدَّال أصلاً، الأمر الذي يُعمِّي المعنى على السَّامع، وهو ما لا يتفق مع فصاحة الألفاظ، ومن ثم يأتي دور القلقلةُ في مثل هذه المواضع ليحافظ على خصوصية الأداء الصوتي لتلاوة القرآن الكريم، وليعطي لأصواته قوة في الإسماع والنصوع؛ بحيث تجعلُ المرحَلةَ الأخيرةَ من مراحل نطق الصَّوت المُقلقَل واضحةً؛ ليكون الصَّوتُ واضِحًا من بداية نُطقهِ حتَّى النِّهاية، وهذه أحد مستويات الفصاحة عند العرب التي من صِفاتها الإبانة التَّامَّة في نطق الصَّوت[50].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الصَّوت - صوت الدَّال- ما اكتسبَ صفةَ القلقلة إلَّا عبر وجوده في البنية أو التَّركيب الذي من شَأنِه أن يُخفِي بعض سِمات الصَّوت، ولكي يظهر هذا الصَّوتُ واضِحًا في النُّطقِ، كان لا بدَّ أن يكون لزمن تردده وطاقتهِ وضغطِه وسيلةٌ تعمل على إظهاره فكانت القلقلةُ، وهذا لا يعني أنّ هذه الأصوات لا تُقلقل إلا في البنية والتَّركيب فقط، وإنَّما يعني أنَّها اكتسَبَتْ هذه الصَّفة بسبب استعمالها فيهما، فالاستعمالات الوظيفيةِ لهذه الأصوات هي سبب اكتسابها القلقلة...[51].

وهكذا يجب التَّحفُّظ في اللَّفظ بالتَّاء في مثل هذه المَواضِع؛ لئلا يُتوهم أنَّها لم تُنطق أَصْلاً؛ لأنَّنا لا نستطيعُ أن نَقِفَ على الدَّالِ وَقْفًا صَحِيحًا إلا بصَوتٍ؛ وذلك لشدَّةِ الحَفزِ والضَّغطِ الذي فيها، وفي عموم حروف القلقلة، مع ضرورة الاحتراز من تشديدها عند قَصدِ بيانِها كما يَفعلُ بعضُ القرَّاءِ.

الخاتمة:

عُنِي البحث ببيان دور ظاهرة القلقلة في تجلية فصاحة اللَّفظ القرآني، وقد ناقش المبحث الأول وصفَ القلقلة صوتيًا، وعرضَ لبيان عللها الصَّوتيَّة، وربطَها بشروط فصاحة اللَّفظ سيما خلوه من التَّنافر والثِّقل. ثم تناول المبحث الثَّاني الجانب التَّطبيق، فطبَّق العلل الصَّوتيَّة للقلقلة على كلِّ حرفٍ من حروفها الخمسة (ق، ط، ب، ج، د)، بغرض الوقوف بطريقة عمليَّة على أثرها في تجلية فصاحة اللَّفظ القرآني. ويعرض البحث فيما يأتي أهم النتائج والتَّوصيات التي خلصت الدِّراسة إليها:

- ساعدتْ ظاهرةُ القلقلة في تجلية فصاحة اللَّفظ القرآني، والمحافظة على خصائصه الصَّوتيَّة المميزة، وذلك عن طريق تخليصه من الثِّقل في النُّطق بحروف القلقلةِ السَّواكن، عن طريق اتباعها بصُوَيْتٍ أو حَركةٍ خَفيفةٍ تمثَّلتْ في حركة القلقلة.

- عملتْ ظاهرةُ القلقلة على تَوزيع الطَّاقة الصَّوتيَّةِ للحرف المُقلقَل تَوزيعًا مُنتظِمًا يجعله بمنأى عن التَّنافر الصَّوتي والثِّقل، ممَّا يساعدُ على الإحساس بسهولةِ نطقه، ويحققُ له قَدْرًا من الانسجامِ الصَّوتي والنُّصوع في التَّلفظ حال تلاوته.

- الاحترازُ بالقلقلة من تَقرِيبِ حَرفٍ من حَرفٍ؛ حتى لا يشتبه بما يجاوره عند النُّطق، الأمر الذي يُؤمِّنُ اللَّبسَ في أصوات اللَّفظ القرآني، ومن ثم في فَهم المعنى لدى السَّامع، فيَخْلُصُ اللفظ ممَّا يشوبُ بيانَه ووضوحَه.

- يوصي البحث بضرورة العناية بدراسة الظَّواهر الصَّوتيّة في تجويد القرآن الكريم في ضوء درس الفصاحة وعلم الأصوات الفيزيائي للكشف عن الخصائص الصَّوتية المميزة للنَّص القرآني.

---

50 حروف القلقلة، دراسة فيزيائيَّة مخبريَّة (219) (بتصرف)

51 المصدر السَّابق (197).

الفصل الرابع

أثرُ الفَصْل والوَصْل
في الأداء القرآني

الفصل الرابع

أثرُ الفَصْل والوَصْل في الأداء القرآني

1. مدخل:

اهتم علماء اللُّغة، والنَّحو، والتَّفسير، والقراءات، والفقه، والبلاغة بدراسة الفَصْلِ والوَصْلِ - أو قل إن شئت الوَقْف والابتداء- منذ عهد مبكر؛ لما لهذا الباب من أهمية في فهم المعنى، والوقوف على مراد المتكلم؛ فتحدَّث سيبويه عن أساليب الوَقْفِ وأنواعه[1]، وإجراء الوَصْل مجرى الوَقْفِ[2]، وعرض له النُّحاةُ في أبواب: العطف، والتَّوكيد، وعطف البيان، والحال، وأنواع الجمل، واعتبره المفسرون أحد أدوات فهم المعنى في النَّص القرآني، وربط علماء القراءات أنواع الوقف -التام، والكافي، والحسن، والقبيح- بالقراءات القرآنية[3]، فقد يكون الوقف تامًّا على قراءةٍ في موضعٍ غيرَ تامٍ في قراءة أخرى... وهكذا، واعتمد الفقهاء وفقًا لذلك على استنباط بعض الأحكام الشَّرعيّة في كتاب الله، وأفردَ له علماءُ البلاغة بابًا مستقلًا في علم المعاني، حتَّى بلغ من اعتنائهم به والتَّنبيه على أهميته في الوقوف على المعنى الصَّحيح أن جعلوه مرادفًا للبلاغة، فقالوا: "البلاغةُ معرفةُ الفَصْلِ من الوَصْلِ[4]"؛ لأنَّ العبرةَ بصحَّة المعنى، وعدم افتقاره إلى غيره، وهو أمرٌ يبدو سَهلاً ميسورًا، ولكنَّه "لا يتأتَّى لتمام الصَّواب فيه إلاَّ الأَعرابُ الخُلَّص، وإلاَّ قومٌ طُبعوا على البلاغة، وأُوتوا فنًا من المعرفة في ذَوْقِ الكلامِ هم به أفراد...؛ ذاك لغموضه ودِقَّة مسلكه، وأنَه لا يَكْمُل لإحراز الفضيلة فيه أحدٌ إلَّا كملَ لسائر معاني البلاغة[5]".

وليس قصرهم البلاغة على معرفة الفَصْل من الوَصْل أنَّ الأمر كذلك، وإنَّما "أرادوا بذلك التَّنبيه على مزيد غموض هذا الفن، وأن أحدًا لا يتجاوز هذه العقبة من البلاغة إلا إذا كان خلف سائر عقباتها خلفه[6]"؛ ولذلك قال الإمام عبد القاهر الجرجاني "واعلم أنَّه ما مِن علمٍ مِن علوم البلاغةِ أنت تقولُ فيه: "إنَّه خَفِيٌّ غَامِضٌ، ودَقِيقٌ صَعبٌ" إلَّا وعِلمُ هذا الباب أغمضُ وأخفَى وأدقُّ وأصعبُ. وقد قَنِعَ النَّاسُ فيه بأن يقولوا، إذا رأوا جملةً قد تُرِكَ فيها العطفُ: "إنَّ الكلام قد استُؤنف، وقُطِعَ عمَّا قبله، لا تطلبُ أنفسُهم منه زيادةً على ذلك. ولقد غَفَلُوا غَفْلَةً شَديدةً[7]". فلم يطلبوا وراء ذلك شيئًا، ورحم الله عبد القاهر الجرجاني، فقد وضعَ يديه كلتيهما على مكمن الدَّاء في درس البلاغة العربيَّة كلها، الذي لم يكد يجاوز -قبله- نطاق التَّعريف بالمصطلحات البلاغية، وإقامة الشَّواهد عليها -بل واصطناعها أحيانًا- إلى شرح الشَّواهد وتحليلها والتعليق عليها، الأمر الذي حصرَ البلاغة العربية في مجموعةٍ من

1 سيبويه، عمرو بن قنبر الكتاب، تحقيق: عبد السَّلام هارون، دار الجيل، ط1، بيروت، د. ت، 3/ 125- 528، 4/ 168- 179.

2 المصدر السَّابق: 3/ 265، 285.

3 ينظر: النَّحاس، 40، 81، 141.193، 228.274، 307.328.341.351، 355.383.

4 البيان والتبيين، 1/ 88. - وينظر: الصناعتين، ص 497.

5 دلائل الإعجاز: 222.

6 مفتاح العلوم، ص 227.

7 دلائل الإعجاز: 231.

المصطلحات والشَّواهد المتوارثة التي لا تربِّي ذوقًا، ولا تنمِّي في نفس القارئ إحساسًا بالجمال، فهي بلاغة وصفية أكثر منها بلاغة تحليليَّة، لا تقف على منابع الجمال في النصوص، ولا تأخذ بيد القارئ إلى تمثُّلِ هيئة الإحساس فيما يقرأ، وتلك آفة البلاغة العربية قديمًا وحديثًا إلا فيما ندرَ من ومضاتٍ وتجلياتٍ فنيَّةٍ في بعض تحليلاتهم الفنيَّة، تظهر على استحياء بين الفينة والأخرى، ولاتزال الحاجة ماسَّة إلى تناول الدرس البلاغي العربي تناولا فنيًّا.

لقد أراد عبد القاهر بنصه السَّابق هذا أن يلفتَ إلى بلاغة الفَصْل والوَصْل أو قل - إن شئت- إلى فلسفة الفَصْل والوَصْل؛ ذلك أنه يرى أنَّ لكلٍّ منهما وجهًا ومَحلا؛ وجهًا يجبُ أن يراعيه المتكلمُ، وترتضيه اللُّغةُ والمقامُ، ومَحلا يَحسنُ معه فَصْلُ الكلام أو وَصْلُه، بحيث يحسن به أداء المعنى، فلا يلتبس على السامع منه شيءٌ.

وقد استمدَّ علماء البلاغة درس الفصل والوصل من القراءات القرآنيَّة التي تعتمد مصطلح القطع والائتناف أو الوقف والابتداء، وقد أَفْرَدَهُ بِالتَّصْنِيفِ خَلَائِقُ مِنْهُمْ: أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ، وَالزجَّاجُ، وَأبو عمرو الدَّانِيُّ، وَالسَّجَاوَنْدِيُّ...، وغيرهم.

يعرِّفُ ابن الجزَري (ت: 833هـ) الوقفَ والابتداءَ بقوله: هو عِلمٌ يُعرَفُ به كيفيةَ أداء قراءة القرآن بالوقف على المواضع التي تَتمُّ عندها المعاني، والابتداءُ من مواضع تَستقيمُ معها المعاني، وتتفقُ مع وجوه التَّفسير وصحة اللُّغة، وما تقتضيه علومها من نحو وصرف ولغة، بحيث لا يخرجُ القارئُ على وجهٍ مناسبٍ من التَّفسير وصحة اللُّغة، ولا يخالف وجوه اللُّغة وسُبل أدائها[8].

لقد جعلوا من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء فيه، واختاروا تبيين معاني كلام الله عزَّ وجلَّ، وتكميل معانيه وجعلوا الوقف منبهًا على المعنى ومفصَّلاً بعضه من بعض، وبذلك تلذُّ التِّلاوةُ، ويحصلُ الفهمُ والدرايــةُ، ويتضحُ منهاجُ الهدايةِ[9].

ولمَّا كان النُّطقُ سابقاً على الخطِّ في اللُّغات؛ كانت مراعاة الظَّواهر الصَّوتيَّة المصاحبة لعملية الكلام، كالتَّطريز الصَّوتي المتمثل في النَّبر، والتَّنغيم...، وتفصيل الكلام بحسب المعنى؛ بحيث يجعل المتكلمُ "نهايةَ فصول القول بحسب نهاية المعنى[10]"، وإلَّا فسدَ المعنى، إمَّا لخفائه على المتلقي، أو لالتباسه بغيره؛ شرطًا مهمًا من شروط صحة المعنى، والوقوف على مراد المتكلم؛ إذ "يكفي من البلاغة ألا يؤتى السَّامع من سوء إفهام المتكلم...[11]"؛ ولذلك أنكرَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم على بعض الخُطباء فصلَه الكلام قبل تمام المعنى، فعن عَدي بن حاتم الطَّائي، قال: جاءَ رجلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتشهَّدَ أحدُهما، فقال: "مَن يُطعِ اللهَ عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد رَشَدَ ومَنْ يعصهما" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بئس خطيب القوم أنت، قل: ومَن يعص اللهَ ورسولَه فقد غوى[12]". فكان ينبغي له أن يصلَ كلامَـه، فيقـول: ومَـنْ

8 النشر في القراءات العشر، 1/ 224، 225. وينظر: دلائل الإعجاز، ص 222 وما بعدها. ومعالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء، للشيخ محمود خليل الحصرى، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1387هـ - 1967م. ونهاية القول المفيد في علم التجويد، الشيخ محمد مكي نصر: 153، مطبعة الحلبي، 1349 هـ. والأسرار الدلالية لعلامات الوقف اللازم والممنوع في القرآن الكريم، د. عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم، 15 وما بعدها.

9 ينظر: جمال القرَّاء وكمال الإقراء، ص 674.

10 ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، القاهرة، 1967م، 597.

11 البيان والتبيين: 1/110.

12 القطع والائتناف: 28.
- وينظر: أبو عمرو الدَّاني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، المكتفى في الوقف والابتدا: تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار، ط1، 1422هـ - 2001م، 135. الحديث: في مسند الإمام الشافعي، الباب الحادي عشر في صلاة الجمعة برقم (427) 1/246، الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس، مسند الإمام الشافعي، بعناية: محمد عابد السندي، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1370هـ - 1951م. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، السنن الكبرى، كتاب الصلاة (برقم 403) 1/ 138، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 1424هـ - 2003م.

يعصهما فقد غوى، أو يقف على (فقد رَشِد)؛ لأنَّ المعني قسيمًا بين المتكلم والمتلقى. قال أبو عمرو الدَّاني: " ففي هذا الخبر أذانٌ بكراهية القطع على المستبشع من اللَّفظ، المتعلِّق بما يُبيِّنُ حقيقتَه، ويدلُّ على المراد منه؛ لأنَّه، عليه السَّلام، إنَّما أقامَ الخطيبَ لما قطعَ على ما يقبح، إذ جمعَ بقطعه بين حال من أطاع ومن عصى، ولم يفصل بين ذلك، وإنَّما كان ينبغي له أن يقطع على قوله: (فقد رَشَد)، ثم يستأنف ما بعد ذلك، أو يصل كلامه إلى آخره، فيقول: (ومَن يعصهما فقد غوى).

وإذا كان مثل هذا مكروهًا مستبشعًا في الكلام الجاري بين المخلوقين، فهو في كتاب الله، عزَّ وجلَّ، الذي هو كلامه، أشد كراهة واستبشاعًا، وأحق وأولى أن يُتجنَب. وقد جاء عن عبد الله بن عمر أنه قال: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ وَأَحَدُنَا يَرَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقْلِ[13]".

ومدارُ الفَصْل والوَصْل وهو تركُ العاطف وذكره فإذا " كان هذا مكروهًا في الخُطبِ وفي الكلامِ الذي يكلِّمُ به بعضُ الناسِ بعضًا، كانَ في كتابِ اللّهَ عزَّ وجلَّ أشدّ كراهةً، وكانَ المنعُ من رسولِ اللّهَ صلى اللّه عليه وسلَّمَ في الكلام بذلك أوكد[14]"؛ لأنَّ في ذلك "إيذانٌ بكراهة القطع على المستبشع من اللَّفظ المتعلق بما يُبينُ حقيقتَه، ويدلُّ على المرادِ منه[15]".

ولعلَّ أقدم النصوص التي وردت إلينا، والتي تدل على اهتمام العرب بتفصيل الكلام، وتصحيح المعنى، وإزالة اللبس في أحاديثهم ومعاملتهم ما رُوى عن أبي بكر الصديق -رضى الله عنه- أنَّه قال لرجلٍ معه ناقة: أتبيعها بكذا؟، فقال: (لا عَافاكَ اللّه)، فقال له: لا تقل هكذا، ولكن قل: (لا، وعافاك اللّه). فأنكرَ عليه لفظه، ولم يسأله عن نيته[16]؛ إذ العبرة في الكلام بإفهام السَّامع، وليست بنية المتكلم. ومن ثم كانت "أول الأَشياء التي يجب أَن يُتحفَّظَ بها ليكونَ القولُ أتم دلالة وإفادة للمعاني وضع حروف الرباطات في المواضع التي يجب أَن تكون فيها من القول.... وإنما ينبغي أَن يتحرى في ذلك ما يكون القول به أَتم إِبانة في الكلام[17]".

ويجب أن نلفت هنا إلى أن فن الوقف والابتداء لا ينبغي الاقتصار في تحصيله على ما جاء في مؤلفات أهل العلم، بل لا بدَّ - وهو الأهم - من تلقي هذا الفن عن أهل هذه الصناعة وأربابها، إذ عليهم التعويل في هذا الشأن أولاً وآخراً، وإليهم المرجع في ضبط وإتقان هذا العلم من علوم القرآن الكريم.

وانطلاقًا من خطر باب الفَصْل والوَصْل في البلاغة، وأهميته في الوقوف على المعاني، ومعرفة المفصول من الموصول منها في كتاب الله تعالى خاصَّة، واستنادًا إلى المنهج الفني في تحليل النُّصوص، وما رأيناه بعد إعمال النَّظر وإدمانه في علامات الوقف والابتداء في المصحف الشريف -والرجوع إلى كتب اللُّغة، والنَّحو، والبلاغة، والتَّفسير، والقراءات، والتَّجويد، والفقه- أن دَرْسَ الفصلِ والوصلِ في كتاب الله تعالى يحتاج إلى مراجعةٍ وتدقيق.

13 المكتفى في الوقف والابتدا: 4.

14 القطع والائتناف: 28.

15 المكتَفى في الوقف والابتدا: 134.

16 القطع والائتناف: 31. وذكره النحاس في عمدة الكتَّاب. ينظر: عمدة الكُتاب، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ط1، الجفان والجابي للطباعة والنشر، 1425هـ- 2004 م 328.

17 تلخيص الخطابة: 112.

2. مفهوم الفَصْلُ والوَصْلُ

الفَصْلُ: هو تَركُ العطف في الجمل، والمجيء بها منثورة تُسْتَأْنَفُ واحدةٌ منها بعد أخرى[18]؛ لقوة الصِّلةِ المعنويَّة المحققِّة للربط بين الجمل، ولوجود علاقات منطقيَّة بينها، كالتَّوكيد والبدليَّة، والبيان، تجعلها مُستغنِيةً عن العطف، "فلا يكونُ فيها العطفُ البتَّةَ؛ لِشبْهِ العَطْفِ فيها - لو عُطِفَتْ- بعَطْف الشَّيْءِ على نَفْسِهِ[19]"؛ وهذا هو الفَصْلُ النَّحوي المتمثِّلُ في تَرك العاطف، وليس الفَصْل الدلالي؛ لأنَّك إنْ حاولتَ أن تُقحم عليها رابطًا، فإنَّك تُضعف نَسْجَها وتُفقدها كثيرًا من مقاصدها ودلالاتها.

وقد يكون سبب الفَصْل عدم المناسبة بين الجمل؛ كأن تكون الجملة "سبيلُها مع التي قبْلَها سبيل الاسم مع الاسم لا يكونُ منه في شَيءٍ، فلا يكونُ إيَّاه ولا مشارِكًا له في معنىً، بل هو شيءٌ إذا ذُكِرَ لم يُذكَر إلَّا بأمرٍ يَنفردُ به، ويكونُ ذِكرُ الذي قبلَه وتَركُ الذِّكر سواءٌ في حالِه؛ لعدم التعلُّق بينَه وبينَه رأسًا. وحقُّ هذا تَرْكُ العطفِ البتَّةَ[20]".

أمَّا الوَصْلُ فهو: "العلم بما ينبغي أن يُصْنَعَ في الجمل من عطف بعضها على بعض[21]"؛ إذا ما جمعت المناسبة بينها.

هذا، وقد خَصَّ البلاغيون باب الوصل بـ (الواو) دون سائر حروف العطف لكونها "لا تُوجبُ إلَّا الإشراك بين الشَّيئَيْن فقط في حكم وَاحِدٍ[22]"، قال سيبويه في ذلك: "ولم تُلْزِم (الواو) الشَّيئين أَنْ يكون أحدُهما بعد الآخَر. ألا ترى أنَّك إذا قلتَ: مررتُ بزيدٍ وعمروٍ، لم يكن في هذا دليلٌ أنَّك مررتَ بعمروٍ بعد زيد[23]" أي أن العطف بـ (الواو) لا يلزم التَّرتيب ولا التَّراخي ولا التَّعقيب الذي يتعلَّق بـ الفاء، وبـ ثم، وبـ أو[24]، وما تثيره هذه الرَّوابط من تحريك الزَّمن وتمديده ووجوب المُهْلَة فيه. "وهذا قولُ الجمهور من أئمة العربية والأصول والفقه، ونصَّ عليه سيبويه في بضعَة عشر موضعًا في كتابه، ونقل أبو علي الفارسي اتفاقَ أئمة العربية عليه... وهو المشهور الذي رجَّحه المُحَقِّقون[25]".

وقد تفاوتتْ نظرةُ كلٍّ من النُّحاة والبلاغيين والمفسرين إلى معنى المناسبة الذي يقعُ الإشراكُ بسببه بين الجمل عند تحليل التَّراكيب اللُّغوية المتعاطفة؛ فكان ثمرة ذلك اختلافهم في جواز عطف الخبر على الإنشاء، وعكسه.

وإذا كان القرآن كله كالقطعة الواحدة، يجوز لك الوصلُ فيه أبدًا، فإنَّ اجتهاد علماء الوقف والابتداء في وضع علاماتٍ للوقف والابتداء، هو من قبيل الاجتهاد الضَّابط، الذي يتسع للخلاف المعتب؛ لأنَّها ليست توقيفيّة[26]؛ ولذلك قالوا : ليس في القرآن وقفٌ واجبٌ. ووكدهم في ذلك كله ضبط الأداء القرآني، وإفهام المعاني، وتفصيلها؛ ليكون ذلك كله معينًا على حسن ترتيل القرآن الكريم وتدبر معانيه، والوقوف على مقاصده ومراميه. ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء: 82).

18 ينظر: دلائل الإعجاز: 222. وعروس الأفراح: 1/ 479.

19 دلائل الإعجاز: 243.

20 المصدر السابق: 243

21 دلائل الإعجاز: 222.. وينظر: عروس الأفراح: 1/ 481.

22 علل النَّحو: 1/377. وينظر: الكتاب: 1/437،438. والمقتضب: 1/10. والأصول في النَّحو 2/55. والمفصَّل في صنعة الإعراب: 403. ومغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب: 463.

23 الكتاب: 1/291. وينظر: دلائل الإعجاز 224.

24 ينظر: الأصول في النَّحو: 2 /76.

25 الفصول المفيدة في الواو المزيدة: 67 وما بعدها. وينظر: دلائل الإعجاز 224.

26 اللهمَّ إلَّا بعض الوقوف القليلة التى يقال إنها أُثِرتْ عن النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا، وقد رَاحَ علماء القراءات يجتهدون في ضبط طُرق الأداء القرآني، فوضعوا علامات الوقف والابتداء، وجعلوا ذلك على أقسامٍ، منها:

- الوقف اللازم، ووضعوا له علامة (م)، وهو يدلُّ على لزوم الوقف وصحته؛ لانقطاع الكلام الأول عن الثَّاني لفظًا ومعنىً.

- والجائز جوازًا مستوي الطرفين، ووضعوا له علامة (ج)، وهو ما يجوز فيه الوصل والفصل؛ لتجاذب الموجبين من الطرفين.

- والجائز مع كون الوقف أولى، فوضعوا له علامة (قلى) التي يحسن الوقف عندها، وذلك بعد النَّظر فيما يقتضيه علمُ اللُّغة، والنَّحو، والمعاني، والقراءات، والتَّفسير، والفقه.... وأجمعوا على استحسان وضع هذه العلامات لمعرفة متى يبتدِئ القارئُ، وأين ينتهي؟ وإنْ كان "جميع ما ذكروه من مراتبه غيرَ مُنضَبِطٍ ولا مُنحَصِرٍ؛ لاختلافِ المفسرين والمعربين؛ لأنَّه سيأتي أنَّ الوقفَ يكون تامًّا على تفسير وإعراب وقراءة، غيرَ تامٍ على آخر؛ إذ الوقف تابع للمعنى[27] "؛ لأنَّ "الكلام المقروء إنَّما يَسهُلُ تفهُّمُ معناه في وقتِ قراءتِهِ بأَن تكون فيه علامات للاتصال والانفصال[28]". فقد يجئُ الاستفهام من دون أداة استفهامٍ، وقد يخرجُ إلى دلالات الإنكار، أو النفي والاستبعاد، أو التَّوبيخ... إلخ؛ فتأتي هذه العلامات لتعينَ على فهم المعنى المراد.

ومن ثم فإنَّ كلَّ ما يُعينُ في رسمِ المصحفِ على فَهْمِ المعنى فهو حَسَنٌ؛ لأنَّ العبرةَ في قراءة القرآن بتدبره، والوقوف على معانية، قال الله تعالى: ﴿ **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا** ﴾ (الإسراء:106)، وقال: (**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا**) (المزمل:4). قال الإمامُ عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: "التَّرتيلُ: تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف[29]"؛ ولذلك اعتبر أئمةُ الإقراء أنَّ مِنْ تَمَامِ مَعْرِفَةِ القرآن مَعْرِفَة الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ فِيهِ، فاختاروا "تبيينَ معاني كلام الله عزَّ وجلَّ، وتكميلَ معانيه، فجعلوا الوقف منبهًا على المعنى، ومفصَّلاً بعضه من بعض، وبذلك تلذُّ التِّلاوةُ، ويَحصلُ الفَهمُ والدِّرايةُ، ويتضحُ منهاجُ الهدايةِ[30]"؛ لعلمهم "أنَّ بَلَاغَةَ الْكَلَامِ لَا تَنْحَصِرُ فِي أَحْوَالِ تَرَاكِيبِهِ اللَّفظية، بَلْ تَتَجَاوَزُ إِلَى الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي تُؤَدَّى بِهَا تِلْكَ التَّرَاكِيبُ، فَإِنَّ سُكُوتَ الْمُتَكَلِّمِ الْبَلِيغِ فِي جُمْلَةٍ سُكُوتًا خَفِيفًا قَدْ يُفِيدُ مِنَ التَّشْوِيقِ إِلَى مَا يَأْتِي بَعْدَهُ مَا يُفِيدُهُ إِبْهَامُ بَعْضِ كَلَامِهِ ثُمَّ تَعْقِيبُهُ بِبَيَانِهِ...[31]". ومن ثَم اشترطوا على المُجيز ألا يُجيزَ أحدًا إلَّا بعد معرفته الوقف والابتداء[32]"؛ لأنَّ ذلك منوطٌ بالفهم، وحسن التلقي عن كتاب الله تعالى، وإفهام السامع المعنى الصحيح من غير لبس أو إغلاق.

ومثال الوقف لبيان المعنى، الوقف على قوله تعالى ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ (يونس:65)، فلا يجوز وصله؛ لئلا يتوهم فيه أنهم قالوا (إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)، وأنَّ ذلك ممَّا يُحزنه -صلى الله عليه وسلم- "ومن ثَم كان الفصلُ هنا بترك الرَّبط بين الجُملتين؛ لدفع التَّوهم في الفهم لدى المتلقي.

إنَّ التَّعامل مع تركيب السُّؤال هو تعامل مع تركيب الجملة بشكل عام بكلِّ ما تتقلب فيه من أحوال التَّقديم والتَّأخير، والذِّكر والحذف، والتَّعريف والتَّنكير؛ لأنَّه "لا يجوز أن يكونَ لنَظْمِ الكلامِ وترتيبِ أجزائهِ

27 منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، 1/24.

28 تلخيص الخطابة: 113.

29 ينظر: النشر في القراءات العشر: 1/209. والإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1394هـ- 1974م، 1/282.

30 جمال القرَّاء وكمال الإقراء، 674.

31 التَّحرير والتنوير: 1/117.

32 الإتقان في علوم القرآن : 1/542. وينظر: جمال القرَّاء وكمال الإقراء : 671.

في الاستفهام معنىً لا يكون له ذلك المعنى في الخبر[33]"؛ لأنَّ "الاستفهامَ استخبارٌ، والاستخبارُ هو طَلَبٌ من المخاطب أن يُخبِرَك[34]".

وهذه القاعدةُ تعيننا في الوقوف على دلالات السُّؤال، وتربطه بقرينة المقام بأقوى سبب؛ لأنَّ المعنى في إدخالِك (اسم/ حرف الاستفهام) على الجملة من الكلام، هو أنَّك تَطلبُ أن يَقِفَكَ في معنى تلك الجُملةِ ومؤدَّاهَا على إثباتٍ أو نفي، فإذا قلتَ: "أزيدٌ منطلق؟" فأنت تطلبُ أن يقال لك: "نعم، هو منطلق"، أو يقال: "لا، ما هو منطلق". وإذا كان ذلك كذلك، كان محالاً أن لا تكون الجملةُ إذا دخلَتها همزةُ الاستفهام استخبارًا عن المعنى على وجه لا تكون هي إذا نزعت منها الهمزة إخبارًا به على ذلك الوَجه[35]".

3. ارتباط الفَصْل والوَصْل بقرينة المقام

يرتبط درس الفصل والوصل في البلاغة العربيَّة بفكرة المقام، "فلكل كلمةٍ مع صاحبتها مقامٌ، ولكلِّ حدٍّ ينتهي إليه الكلامُ مقامٌ، وارتفاعُ شأن الكلام في باب الحُسن والقَبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليقُ به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإنْ كان مقتضى الحال إطلاقُ الحكمِ، فحسنُ الكلام تجريده عن مؤكِّدات الحكم، وإنْ كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسنُ الكلام تحليه بشيءٍ من ذلك بحسب المقتضى ضعفًا وقوةً، وإنْ كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه، فحسنُ الكلام تركه، وإنْ كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة، فحسنُ الكلامِ ورودُهُ على الاعتبار المناسب... [36].

إنَّ الاعتبار الأساس في الفصل والوصل في الكلام راجعٌ إلى وجود المناسبة والتعلُّق بين المفردات والجمل أو انتفائها، واعتبارِ مقام الكلام وسياقه؛ "يدلُّك على ذلك أنَّك إنْ جئتَ فعطَفتَ على الأول شيئًا ليسَ منه بسببٍ، ولا هو ممَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِه ويَتَصِلُ حديثُه بحديثِهِ لم يستقمْ. فلو قلتَ: "خرجتُ اليومَ من داري" ثم قلتَ: "وأحسنَ الذي يقولُ بيتَ كذا!". قلتَ ما يُضْحَكُ منه. ومن ههنا عابوا أبا تمام في قوله:

لا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أنَّ النَّوَى　　　صَبِرٌ وأنَّ أبا الحُسَيْنِ كَرِيمُ

وذلك لأنَّه لا مناسبة بين كَرَم أبي الحسين، ومَرَارة النَّوى، ولا تعلُّق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديثُ بهذا الحديثُ بذاك "[37].

ومن ثَم كانت ملاحظة الارتباط فيما بين الجمل أدق وألطف؛ لأنَّها في الأغلب بين الجمل باعتبار المعاني العقليَّة التي يدخلُ فيها سياق الكلام ومقتضى أحواله، وفي المفردات باعتبار المعاني الوضعية، ولا شك أنَّ الأولى ألطف وأخفى[38].

---

33 دلائل الإعجاز: 140.

34 المصدر السابق: 140.

35 المصدر السابق: 141.

36 مفتاح العلوم: 158.

37 دلائل الإعجاز 224، 225.
والطَّعنُ على عطف أبي تمام في هذا البيت على اشتهاره في كتب البلاغة، مدخولٌ، يحتاجُ فضلَ تدبرٍ ونظرٍ، واعتبارًا لمقتضى الحال؛ لأنَّ الرجوع إلى سياق البيت ومقامه في القصيدة يقضي بغير هذا الحكم، ويذهب بلجاجته، فجملة الأمر فيه أنَّ الشَّاعر أراد أن يقول: إذا كان " النوى صبر" أمرًا مقررًا وشائعًا ولاجدال، فليكن كرم أبي الحسين كذلك.

38 بنظر: حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، المُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيْضَاوي شهاب الدين، أحمد بن محمد بن عمر، دار صادر- بيروت. بدون تاريخ. 1/204

ويبدو ارتباطُ الفَصْل والوَصْل بقرينة السِّياق وفكرة المقام واضحًا جليًا في قوله:

زَعَمَ العَواذِلُ أنَّني فِي غَمرَةٍ   صَدَقُوا ولكن غَمرَتِي لا تَنْجَلِي

حيث "لم يعطف "صَدَقُوا" على "زَعَمَ العَواذِلُ"؛ للاستئناف، وقد أصابَ المحزَّ؛ وذلك أنَّه حين أبدى الشِّكايةَ من جماعات العذل بقوله: "زَعَمَ العَواذِلُ أنَّني فِي غَمرَةٍ" فكان ممَّا يحرِّكُ السَّامعُ عادةً ليسألَ: هل صدقوا في ذلك أم كذبوا؟ صار هذا السؤالُ مقتضى الحال، فبنى عليه تاركًا للعطف على ما قبله، إيراد الجواب عقيب السؤال[39]".

فمسوغ الفصلِ في البيت راجعٌ إلى اعتبار حال السَّامع حين يسمع قوله: "زَعَمَ العَواذِلُ أنَّني فِي غَمرَةٍ" أن يسأل: هل صدقوا في ذلك أم كذبوا؟، "ولو قال: "زعمَ العواذلُ أنني في غَمْرةٍ وصَدَقُوا"، لانتفى اعتبار حال السامع؛ لأنَّ الشاعر يكون هنالك قد وَصَلَ الكلام، ولم يبنِهِ على أنَّه مسئول[40].

ومن أمثلة اعتبار قرينة المقام في الفصلِ بين الجمل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ (آل عمران:15)، حيث جاء القطعُ على الاستفهام كافيًا حسنًا: ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ** ﴾ لدلالته على التَّقرير؛ تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا[41]، ثم استُؤنِفَ بيانه وتقريره، فقال سبحانه: ﴿ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ وهو كما تقول: هل أدلكم على رَجلٍ خير من فلان؟. عندي رجل من صفته كيت وكيت[42]. وبيانُ الخيريَّةِ ظاهرٌ من وصف الجنات والأزواج المطهرة مع قيد الخلود[43]. وهذا أدخل في البلاغة؛ لكون الاستئناف على هذا الوجه منطويًا على بيان ما هو أكثر في الخير من مستلذات الدنيا وشهواتها.

هكذا يبدو التعلُّق والمناسبة بين الآيتين الكريمتين واضحًا جليًا باعتبار قرينة المقام، حيث وردتِ الآيةُ المباركة في سياق الحديث عن زينة الدُّنيا وشهواتها، دلَّ على ذلك أفعل التَّفضيل في السُّؤال: (**بِخَيْرٍ**) واسم الإشارة (**ذَٰلِكُمْ**) فالمفضل عليه (**نعيم الدُّنيا**)، وهو ما ذُكِرَ قُبَيل آيتنا هذه في قوله تعالي: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (آل عمران:14)، والمفضل (**نعيم الآخرة**)، وهو ما ذُكِرَ بعد جملة الاستفهام[44].

فالمقامُ -إذن- مقامُ تسليةٍ عن الدُّنيا، وتقويةٍ لنفوس تاركيها[45]. جاء ذلك عن طريق الموازنة بين نعم الدنيا، ونعيم الآخرة.

---

39 مفتاح العلوم: 237.

40 ينظر: دلائل الإعجاز: 236.

41 ينظر: القطع والائتناف،121. والمكتفى في الوقف والابتدا، 1/38.
- جامع البيان في تأويل القرآن: والطَّبري، محمد بن جرير، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م، 6/261.
- والكشف والبيان عن تفسير القرآن: الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: الإمام أبي محمد ابن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت- لبنان، 1422هـ - 2002م، 3/29. والقرطبي: 4/37.
- والتسهيل لعلوم التنزيل: الغرناطي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، بيروت- لبنان، 1416هـ 1/147. والكشاف:1/343.
- المقصد لتلخيص ما في المرشد من الوقف والابتداء في علم القراءات: الأنصاري،أبو يحيى زكريا، المطبعة العامرة العثمانية- مصر، 1305هـ، ص 19. ومنار الهدى في بيان الوقف والابتدا: 1/128. والتَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/153.

42 ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، - بيروت، 1418هـ 2/8.
- والآلوسي، روح المعني: 2/98. والتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم 1/154.

43 انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 2/124.
- وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، بدار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون تاريخ، 2/15.

44 ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/153.

45 ينظر: الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه، 1/324.
- والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب،تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ، 1/410.

ومن ثم نرى -والله تعالى أعلم- أن الفصلَ على الاستفهام في الآية المباركة أولى من الوصل؛ لشبه كمال الاتصال بين الجملتين؛ حيث وقعت الجملة الثَّانية جوابًا لسؤالٍ تضمَّنته الجملة الأولى، ممَّا اقتضى الفصل بينهما، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال. وهو ما يعني أن علامة الوقف المثبتة في المصحف الشَّريف في أسلوب السُّؤال في الآية المباركة هي علامة (ۖ) التي تعني ترجيح الوصل على الوقف، علامة مرجوحة أَوْلَى منها علامة (ۗ) التي تعني أن الوقف أولى من الوصل.

الفصل الخامس

أثرُ اللَّهجات في الأداء القرآني
(الإمالة والتَّفخيم نموذجًا)

الفصل الخامس

أثرُ اللَّهجات في الأداء القرآني
(الإمالة والتَّفخيم نموذجًا)

1. مدخل:

اللَّهجَةُ لغةً: لَهِجَ بالأمرِ لَهَجًا، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ كِلاهُمَا: أُولِعَ به واعْتَادَهُ، واللَّهْجَةُ واللَّهَجَةُ: طَرَفُ اللِّسَانِ. واللَّهْجَةُ واللَّهَجَةُ: جَرْسُ الكَلامِ، والفَتْحُ أَعْلَى. ويُقَالُ: فُلانٌ فَصِيحُ اللَّهْجَةِ واللَّهَجَةِ، وهي لغَتُهُ التي جُبِلَ عَليهَا فَاعتَادَهَا ونَشَأَ عَليهَا. واللَّهْجَةُ: اللِّسَانُ، وقَدْ يُحَرَّكُ، وفي الحَدِيثِ: " ما أظلَّتِ الخضراءُ ولا أقلَّتِ الغبراءُ من ذي لهجةٍ أَصْدَقَ من أَبِي ذَرٍّ[1]".

أمَّا اللَّهجَةُ اِصْطِلَاحًا: فهي مجمُوعَةٌ من الصِّفَاتِ اللُّغَويَّةِ تَنْتَمِي إلى بِيئَةٍ خَاصَّةٍ، ويَشْتَرِكُ في هذه الصِّفَاتِ جَمِيعُ أَفْرَادِ هذه البِيئَةِ، وبِيئَةُ اللَّهْجَةِ هي جُزْءٌ مِن بِيئَةٍ أَوْسَعَ وأَشْمَلَ تَضُمُّ عِدَّةَ لهَجَاتٍ، لِكُلٍّ مِنْهَا خَصَائِصُهَا، ولكِنَّهَا تَشْتَرِكُ جَمِيعاً في مَجمُوعَةٍ مِن الظَّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ التي تُيسِّرُ اِتْصَالَ أَفْرَادِ هذه البِيئَاتِ بعضهم ببعض، وفَهْمَ مَا قد يَدُورُ بَيْنَهُم مِن حَدِيثٍ فَهْمَاً يَتَوقَّفُ على قَدْرِ الرَّابطَةِ التي تَربطُ بَيْنَ هذه اللَّهَجَاتِ، وتلكَ البِيئَةِ الشَّامِلَةِ التي تَتأَلَّفُ مِن عِدَّةِ لهَجَاتٍ هي التي اِصْطُلِحَ على تَسْمِيتِهَا باللُّغَةِ.

فالعَلاقَةُ بين اللَّهْجَةِ واللُّغَةِ هي علَاقةُ الخَاصِّ بالعَامِ أو الفَرعِ بالأَصْلِ، وقد اِسْتَعْمَلَ اللُّغَويونَ القُدمَاءُ مُصْطَلَحَ لغَةٍ أو لغيَّةٍ حِيْنَ أَشَارُوا إلى الفُرُوقِ بين لهَجَاتِ القَبائل، فعَقَدَ ابنُ جِني بَابًا في كِتَابِهِ الخَصائِص بعنوان (تَدَاخُلُ اللُّغَاتِ) وثمَّة كُتُبٌ حَمَلَتْ عُنوَانَ: (كِتَابُ اللُّغَاتِ) للغويينَ كِبَارٍ أمثال الفرَّاء وأبي عبيدة والأصمعي...، غَيْرَ أنَّ هذه الكُتُبَ لم تَصِلْ إلينا، وإنَّما أُشِيرَ إليهَا في مَوَاضِعَ مُختَلِفَةٍ من كُتُبِ التُّراثِ اللُّغَوِي.

2. القِراءَات القُرآنِيَّةُ مصدر أصيل للَّهَجَاتِ العَرَبيَّةِ

تُعَدُّ القِراءَاتُ القُرآنِيَّةُ المصدرَ الأصيل والمُقدَّم في مصادرِ اللَّهجاتِ العَربيَّةِ لوثاقتها وصحةِ ثبوتها بخلافِ جميعِ المصادر الأخرى؛ فالقِراءَاتُ -على خلافِ باقي المصادرِ في دراسةِ اللَّهجاتِ العربيَّةِ- لا تكتفي بمجردِ نقلِ المسموعِ من كَلامِ العَربِ، بل تُقرنُه بصفةِ أَدائِهِ كذلك، يقول الدكتور عبده الراجحي: "ونحن نعتبرُ القراءاتِ أصلَ المصادرِ جميعًا في معرفةِ اللَّهجات العربية؛ لأنَّ منهجَ عِلْمِ القِراءَاتِ في طَريقةِ نقلِهَا يختلفُ عن كُلِّ الطُّرقِ التي نقلت بها المصادر الأخرى كالشِّعرِ والنَّثرِ، بل يختلفُ عن طُرقِ نَقْلِ الحَدِيثِ، فالقراءةُ لا تكتفِي في النَّقلِ بالسَّمَاعِ بل لا بُدَّ من شرطِ العَرضِ وهما

1 أخرجه الترمذي (3802) واللفظ له، وابن حبان (7135)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (5/276).

أَصحُّ الطُّرقِ في النَّقلِ اللُّغوي... أَضِفْ إلى ذلك أنَّ أَصْحَابَ القِراءَاتِ كانوا - إلى شهرتهم بالضَّبطِ والدِّقَةِ والإتقانِ- على معرفةٍ واسعةٍ بالعربيةِ ووجوهِها...، بالإضافةِ إلى عدالةِ أئمَّةِ القِراءةِ وتدينهم بخلاف أئمَّةِ اللُّغةِ، فإنَّ هذه الصِّفة لا تطَّردُ فيهم.

ولعلَّ الخلافَ بين بعضِ النُّحاة والقرَّاءِ راجعٌ إلى اختلافِ منهجِ العِلْمَين؛ فمَنهَجُ النُّحَاةِ قَائِمٌ على التَّقعِيـدِ والقياسِ، ومنهَجُ القُـرَّاءِ قائمٌ على مطلـق الرِّوايةِ والنَّقلِ. "فالنُّحَاةُ أصحابُ تَقعِيدٍ وتَنظِيمٍ، وهذه الرِّواياتُ التي تَخرجُ على قَواعِدهم كانت تفجأهم، فلا يكون منهم إلَّا تجريحها، أو إخراجها على التَّوهمِ. والقُرَّاءُ أصحابُ أَدَاءٍ، وهم أَهْلُ تَلقٍ وعَرْضٍ، فهم -من هذه النَّاحيةِ- أَدقُّ من النُّحاةِ في نقلِهم للغَةِ؛ ولذلك: "نحسبُ أنَّ الحقَّ في جانبِ القُرَّاءِ حيثُ إنَّ بحثنا في اللَّهَجَاتِ يُثبِتُ أنَّه قد كَانَتْ هناك لهجَاتٌ مستعملةٌ تؤيدُ هذه القراءاتِ، ولو كان النَّحاةُ مهتمين بدراسة اللَّهَجَاتِ العَربِيَّةِ القديمةِ لما رَدُّوا هذه القِراءَاتِ ولما جَرَّحُوا أَصحَابَها.

يرى الدكتور الرَّاجحي أنَّا لا نستَطِيعُ أن نُعوِّلَ على القِراءَاتِ الصَّحِيحةِ وَحْدَهَا في معرفةِ اللَّهَجَاتِ العَربِيَّةِ إذْ إنَّ العِبرةَ في اختلافِ القِراءَات، إنَّما كانت لاختلافِ اللَّهَجَاتِ، وهذه القِراءَاتُ الصَّحِيحَة لَيْسَتْ كل القِراءَات التي كانَ يقرأ بها المسلمون الأولون، لكنَّها اشتهرت على رأسِ الثلاثمائةِ حين سَبَّعَ ابنُ مجاهد القِراءَاتِ السَّبع وشَذَّذَ مَا عداها..."[2]. وعلى أية حالٍ فإنَّ القراءاتِ الشَّاذَّةَ جَاءَتْ منقولةً مرويةً، والرِّوايةُ تبلغُ بها عصر الرَّسول صلى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الأمرُ الذي يهمنا -هنا- إذْ تُعتَبَرُ بذلك صورةً لاختلافِ اللَّهجَاتِ[3]. فكلُّ ما وَرَدَ أنَّه قُرِئَ به جَازَ الاحتجَاجُ بِهِ في العَربِيَّةِ، سواءٌ أَكَانَ متواتِرًا أم آحادًا أو شاذًّا، وقد أطبقَ النَّاسُ على الاحتجاج بالقِراءَاتِ الشَّاذَّةِ في العَربِيَّةِ إذا لم تخالف قياسًا معروفًا، بل ولو خالفته يُحتجُّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه[4].

3. أثر الإمالة والتَّفخيم في الأداء القرآني

إنَّ الدَّور التَّاريخي الذي لعبته البيئة في السيكولوجيا البشرية Human psychology يُعوَّل عليه كثيرًا في تفسير بعض سلوكيات البشر وطِباعهم، بل وفي ثقافاتهم وآدابهم ولغاتهم، وهو أمر لم يغب عن العلماء العرب الذين ذهبوا إلى أنَّ سلامةَ اللَّفظِ تتبعُ سلامةَ الطَّبْعِ، ودماثةُ الكلام بقدر دماثة الخِلْقة. وأنت واجدٌ ذلك ظاهرًا في أهل عصرك وأبناء زمانك - لا محالة- فترى الجَافي الجِلْف منهم كَزَّ الألفاظ، مُعقَّدَ الكلام، وَعْرَ الخطاب؛ حتَّى إنك رُبَّما وجدتَ ألفاظَه في صوتِه ونغمتِه، وفي جِرْسِهِ ولهجتِه. فمن شأن البداوة أن تُحْدِثَ بعض ذلك؛ ولأجله قال النَّبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ بَدَا جَفَا"[5] ومن شأن الحاضرة أن تُحدِثَ الرِّقةَ[6]؛ ولذلك تجد شعرَ عَدِيٍّ -وهـو جاهلي- أسلسَ من شعـر الفرزدق، ورَجَـز رؤبـة، وهما آهـلان؛ لملازمة عَـدِيّ الحاضرة، وإيطانه الرِّيفَ، وبُعده عن جلافة البَدْو وجفاء الأَعراب"[7]. فالطَّبائع تجذبُ إليها من التَّراكيـب والألفاظ ما يلائمها رقةً وجفاءً!

يدلُّ هذا على وجود علاقة بين البيئة التي ينشأ فيها الإنسان ولغته، بل وطريقته في نطق الألفاظ، الأمرُ الذي تنشأ عنه بعض الخصائص اللَّهجيَّة لجماعة بشريَّة معينة تعيش في منطقة جغرافيَّة معينة دون جماعة أخرى تعيش في منطقة جغرافيَّة مغايرة، فلهجةُ سكان الأرياف تختلف عن لهجةِ سكان البدو، ولهجةُ سكان السَّواحل تختلفُ عن لهجةِ البدو كذلك.

2 اللَّهجات العربية في القراءاتِ القرآنية: ص 106.

3 ينظر: المصدر السابق: ص 107.

4 ينظر: الاقتراح: السيوطي، ص 17.

5 مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة، دمشق، 2001م، 14/430.

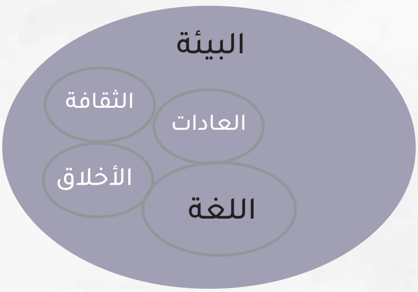
6 ينظر: البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، ط1، دار صادر، بيروت، 198 7/235.

7 الوساطة بين المتنبي وخصومه: ص 18.

وهنا يأتي دور الإيكولوجيا الثقافية Cultural Ecology التي تُعنَى بدراسة التَّغير الثَّقافي النَّاشئ عن التَّكيف مع البيئة الطَّبيعية[8]، وهو تكيفٌ حتميٌّ لا ريب[9]. تظهر آثاره في الخصائص الثقافيَّة والمعرفية للمجتمعات الإنسانيَّة.

فالخصائصُ الجغرافيّةَ والمناخيَّة للمكان الذي يعيشُ فيه الإنسان، وأمنه وخصوبتُه، وتحضرُه، وتبديه... إلخ، كلُّ ذلك يؤثِّرُ في التَّكوين الفكري، والثَّقافي والأدبي، بل واللُّغوي أيضًا للإنسان؛ وهو ما جَعَلَ جُمَّاعَ اللُّغةِ في عصور الاحتجاج، يجعلون بُعدَ المكان عن الحضر أحدَ شروط الاحتجاج باللُّغة؛ كي لا تُخالطها ليونةُ الحضر، ولحنُ العَجم والعوام، فتفسد، وقد احتاطوا وبالغوا في ذلك حتَّى إنَّهم لم يقبلوا الاحتجاجَ بلغةِ بعض فحول الشعراء لإقامتهم بالحضر، فـ "ذُو الرُّمَّةِ حجَّةٌ؛ لأنَّه بدويٌّ"[10]؛ ولذلك قسَّموا الشعراء إلى شعراء القُرى، وشعراء البَدو[11].

تؤثِّر البيئةُ -إذن-على طِباع الإنسان، وفكرِه، ولغتهِ، وثقافتِه...إلخ، وهو ما يمكن أن نُمثِّلَ له بهذه الخطاطة:



الشكل رقم (8): تأثير البيئة في اللغة والعادات والثقافة والأخلاق

والسُّؤال - هنا- هل ثمة علاقة بين البيئة العربيَّة واللَّهجات العربيَّة؟ هذا هو السُّؤال الذي يجب أن نُعنى بالإجابة عنه هنا.

4. أثر البيئة في فصَاحة اللُّغة أو هُجنَتها:

تَحدَّثَ علماءُ اللُّغةِ عن أثر البيئة في فصاحة اللغة وفي هجنتها، فعقدَ ابن جني (ت : 392هـ) في كتابه (المُحتَسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) بابًا سمَّاه "في ترك الأخذ عن أهل المَدَرِ كما أُخِذَ عن أهل الوبر"، تَحدَّثَ فيه عن عِلَّة تركِ فصيحِ اللُّغة عن أهل المَدَر/ الحضر، يقول: وعِلَّةُ امتناعِ ذلك مَا عَرَضَ للغات الحاضرة وأهل المَدَر من الاختلال والفساد والخطل، ولو عُلِمَ أنَّ أهلَ مدينةٍ باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيءٌ من الفساد للغتهم، لوجَبَ الأخذُ عنهم كما يُؤخذُ عن أهل الوَبَر.

8 ينظر: Joralemon, David (2010). Exploring Medical Anthropology. Upper Saddle River, NJ Prentice Hall. p. 165

9 وهو ما أكَّده أرسطو في كتاباته، وابن خلدون في مقدمته، والمسعودي في "مروج الذهب"، والقزويني في "عجائب المخلوقات"، والجاحظ في كتبه، وغيرهم، وعُرِف عند البيئيين بالحتميَّة البيئيَّة، وعند الجغرافيين المتأخرين بالحتميَّة الجغرافيّةEnvironmentalism هو" اتجاه يُعنَى بدراسة أثر العوامل (البيئية) على الإنسان". ينظر: قواعد الجغرافيا العامَّة الطبيعية والبشرية: د. جودة حسنين جودة، د. فتحي محمد أبو عيانة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م. ص: 340.

10 فحولة الشعراء : 20. - الموشَّح: المرزباني، ص 204.

11 ينظر: طبقات فحول الشعراء: 1/140. والموشَّح: 90.

5. علاقة الإمالة والتّفخيم بالبيئة العربية

قَرَأَ أَئِمَّةُ الْعَرَبِيَّةِ الْقُرْآنَ الكريم "بِلَهَجَاتِ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي وُزِّعَتْ عَلَيْهَا الْمَصَاحِفُ: الْمَدِينَةِ، وَمَكَّةَ، وَالْكُوفَةِ، وَالْبَصْرَةِ، وَالشَّامِ، قِيلَ وَالْيَمَنِ وَالْبَحْرَيْنِ، وَكَانَ فِي هَذِهِ الْأَمْصَارِ قُرَّاؤُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ قَبْلَ وُرُودِ مُصْحَفِ عُثْمَانَ إِلَيْهِمْ فَقَرَأَ كُلُّ فَرِيقٍ بِعَرَبِيَّةِ قَوْمِهِ فِي وُجُوهِ الْأَدَاءِ، لَا فِي زِيَادَةِ الْحُرُوفِ وَنَقْصِهَا، وَلَا فِي اخْتِلَافِ الْإِعْرَابِ دُونَ مُخَالَفَتِهِ مُصْحَفَ عُثْمَانَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْقَارِئُ الْوَاحِدُ قَدْ قَرَأَ بِوَجْهَيْنِ لِيُرِيَ صِحَّتَهُمَا فِي الْعَرَبِيَّةِ قَصْدًا لِحِفْظِ اللُّغَةِ مَعَ حِفْظِ الْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ بِهَا، وَلِذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَثِيرٌ مِنِ اخْتِلَافِ الْقُرَّاءِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ اخْتِيَارًا.... وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ الْقِرَاءَةَ بِالْإِمَالَةِ مَعَ ثُبُوتِهَا عَنِ الْقُرَّاءِ، وَهِيَ مروية عَن مقرئ الْمَدِينَةِ نَافِعٍ مِنْ رِوَايَةِ وَرْشٍ عَنْهُ وَانْفَرَدَ بِرِوَايَتِهِ أَهْلُ مِصْرَ فَدَلَّتْ كَرَاهَتُهُ عَلَى أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْقَارِئَ بِهَا مَا قَرَأَ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الِاخْتِيَارِ[12]". ويرى ابن جني أنَّ "الإمالةَ والتَّفخيم في حروف المعجم ضربٌ من الاتساع، وذلك أنَّ الإمالةَ والتفخيمَ ضربان من ضروب التَّصرف[13]". وهما لغتان (أي لهجتان) ليست إحداهما أقدم من الأخرى، بل نزلَ القرآنُ بهما جميعًا[14].

ونظرًا لارتباط الظَّواهر اللَّهجيَّة الصَّوتيَّة بالمكان جَاءتِ الإمالةُ نفسُها على درجاتٍ تبعًا لأهل المكانِ أنفسهم، يقول صاحب الكامل في القراءات: "اعلم أنَّ الإمالةَ على ضروبٍ ولها دواع، ومن اللُّغات (يقصد اللَّهجات) والطِّباع، وهي مراتبُ، وللقرَّاءِ فيها لطائفُ ونوادرُ، ولها موانعٌ، وهي: تَقريبُ الفتح من الكسر، والألف من الياء؛ طلبًا للخِفَّةِ مع إرادة الفتح والألف على لغةِ غيرأهل الحجاز. فأمَّا الحِجَازيَّةُ فإنَّهم يطلبون التَّفخيم، وهو الأجذل ولا سيما قراءة أهل مكَّة...[15]".

والإمالةُ بوصفها انقلابُ الألف عن الياء، وصيرورتها إلى الياء أيضًا تأتي على ضربين: إمالة متوسطة، وإمالة شديدة، والقراء يستعملونهما معًا؛ فالإمالة المتوسطة حقها أن يُؤتى بالحرف بين الفتح المتوسط وبين الإمالة الشديدة، والإمالة الشديدة حقها أن تقرب الفتحة من الكسرة، والألف من الياء، من غير قلب خالص، ولا إشباع مبالغ، قال: والإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالفتحُ لغةُ أهل الحجاز والإمالةُ لغةُ عامَّةٍ أهل نَجْد، مِن تَميم وقيس وأسد[16].

التَّفخيم أو الفتح: هو الانتحاء بالألف نحو الضَّم مبالغةً في الفتح كما هو الحال في نطقنا للصَّلاة والزَّكاة والحياة، ويسميه سيبويه النَّصب[17].

اتفق علماء اللُّغة -إذن- على وجود بعض الاختلافات بين لغات القبائل العربيَّة على المستوى الدلالي لبعض الألفاظ، وكذلك على المستوى اللَّهجي الخاص بطريقة نُطق بعضها الآخر، الأمر الذي نتج عنه اختلاف أحوالهم في تلقي بعضهم لغة بعض، "فمنهم مَن يَخفُّ ويُسرعُ (في) قبول ما يسمعه، ومنهم مَن يستعصم، فيُقِيم على لغته البتة، ومنهم مَن إذا طال تكرُّر لغة غيره عليه لصقت به، ووجِدَت في كلامه[18]". وهو ما يعني أنّ هذه الاختلافات غير مُلزمةٍ لأهل اللّغة أجمعين؛ لأسباب منها:

12 التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، 1/52.

13 ابن جني: أبو الفتح عثمان: المُحتَسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1420هـ-1999م، 2 /36.

14 الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها: يوسف بن علي بن جبارة بن سواده، تحقيق: جمال ابن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط1، 1428هـ - 2007م، 1/ 308.

15 الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها: 1/ 312.

16 أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم الدمشقي: إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1982، ص 152.

17 ينظر: سيبويه: 4/ 125، 126، 127، 136، 127،138، 139.

18 الخصائص، 1/385. ذكرَ ابنُ جني أمثلةً لاختلافهم في معني بعض الألفاظ، وهو ما يتسع المقام لذكره.(ينظر: الخصائص، 1/385، 386).

أ. ارتباط بعض الظواهر اللَّهجية بالبيئات الجغرافيَّة التي نشأت فيها، ومن ثمَّ طِباع أهلها، " إِذْ لِلْبِقَاعِ تَأْثِيرٌ فِي الطِّبَاعِ[19]". وهذا ما لفت إليه صاحب (الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها) في حديثه عن الإمالة، حيث قال: "اعلم أنَّ الإمالة على ضروب، ولها دواع من اللُّغات والطِّباع، وهي مراتب، فأمَّا الحجازية فإنَّهم يطلبون التَّفخيم، وهو الأجذل ولا سيما قراءة أهل مكَّة...[20]".

ب. خضوع بعض الظَّواهر اللَّهجيَّة في العربيَّة للاستحسان، ويخضع بعضها الآخر للاستهجان؛ وذلك بالنظر إلى حروف اللُّغة التِّسعة والعشرين[21] التي "قد تلحقها ستة أحرف تتفرع عنها حتَّى تكون خمسة وثلاثين حرفًا، وهذه السِّتة حسنة[22]"، " يُؤخَذ بها وتُستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالةً شديدة، والشين التي كالجيم، والصَّاد التي تكون كالزَّاي، وألف التَّفخيم، يعنى بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصلواة، والزكواة، والحيواة[23]"، وكذلك كتابة الواو ألفا كما في: مشكواة، منواة، النجواة، الغدواة.

وقد تلحقها ثمانية أحرف أخرى "فتكون اثنين وأربعين حرفًا بحروف غير مستحسنةٍ، ولا كثيرةٍ في لغة مَن تُرتَضي عربيته، ولا تُستَحسَن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشِّين، والضَّاد الضَّعيفة، والصَّاد التي كالسِّين، والطَّاء التي كالتَّاء، والظَّاء التي كالثَّاء، والباء التي كالفاء. وهذه الحروف التي تتمتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون لا تتبين إلَّا بالمشافهة[24]".

يمكن القول -إذن- أَنَّ أحد أسباب القرءاة بألف التَّفخيم، وألف الإمالة، ومن ثَمَّ إثباتُهما في رسم المصحف الشَّريف، هو كونهما من الحروف المُستَحسَنة وذهب الخليل بن أحمد إلى "أنَّ إجناح الألف أخفُّ عليهم، يعني: الإمالة؛ ليكون العمل من وجهٍ واحد، فكرهوا ترك الخفة[25]"، وقال أبو الفتح: "أمَّا على الجملة فإنَّ الإمالةَ والتَّفخيمَ في حروف المعجم ضربٌ من الاتساع، وذلك أنَّ الإمالةَ والتفخيمَ ضربان من ضروب التَّصرف[26]"، فهما "لغتان ليست أحدهما أقدم من الأخرى بل نزل القرآن بهما جميعًا[27]".

ولعلَّ من الأمور التي تدلُّ على ارتباط الإمالة باللَّهجات العربية، ومن ثَمَّ ببعض بطون العرب أنَّ "الأسباب الستة الدَّاعية إلى الإمالة هي علة الجواز لا علة الوجوب، ألا ترى أنه ليس في الدنيا أمرٌ يُوجِبُ الإمالةَ، وأنَّ كلَّ مُمَالٍ لعلةٍ من تلك الأسباب الستة[28] لك أن تتركَ إمالتَه مع وجودها فيه. فهذه إذًا علَّة الجواز لا علَّة الوجوب[29]". ولعلَّ السَّبب في كون عِلل الإمالة جوازية غير وجوبيَّة هو كونها

19 ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركاؤه، ط1، القاهرة 1376هـ - 1957م، 2/ 501.

20 يوسف بن علي بن جبارة اليشكري المغربي: الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، تحقيق: جمال ابن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط1،2007 م، ص 312.

21 يوجد اختلاف بين ترتيب الخليل للحروف العربية، وترتيب سيبويه، وترتيب ابن جني.
- فترتيب الخليل للحروف هو: ع، ح، ه، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، ي، و، ا. - وترتيب سيبويه هو: ء، ا، هـ، ع، ح، غ، خ، ك، ق، ض، ج، ش، ي، ل، ر، ن، ط، د، ت، ص، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، ب، م، و.
- وترتيب ابن جني هو: ء، ا، ه، ع، ح، غ، خ، ق، ك، ج، ش، ي، ض، ل، ر، ن، ط، د، ت، ص، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، ب، م، و.

22 الخصائص، 1/ 59.

23 الكتاب، 4/432.

24 المصدر السابق، 4/432. وينظر: الخصائص، 1/59.

25 الكتاب، 3/ 278.

26 المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، 2/36.

27 الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، 1/ 308

28 هي انقلاب الألف عن الياء، وصيرورتها إلى الياء، وكونها بدلا عن مكسور من واو أو ياء، ووجود يا، قبلها أو بعدها، ووجود كسرة قبلها أو بعدها، والتناسب. ينظر: مبحث الإمالة، شرح ابن يعيش، 9/ 55. والكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، 1/ 308.

29 الخصائص، 1/165.

عِللًا صوتيَّة؛ فـ "الإمالة إنَّما وقعت في الكلام لتقريب الصَّوت من الصَّوت، وذلك نحو: عالم، وكتاب، وسعَى، وقَضى، واستقضى، ألا تراكَ قرَّبتَ فتحةَ العَين من عالِم إلى كسرة اللام منه، بأن نحوتَ بالفتحةِ نحوَ الكسرةِ، فأمَلتَ الألفَ نحو الياء، وكذلك: سعى، وقضى، نحوتَ بالألفِ نحو الياء التي انقلبتْ عنها، وعليه بقية الباب[30]"؛ لأجل هذه العِلل الصَّوتيَّة اختلفَتْ أحوالُ العرب "في تلقي الواحد منها لغةَ غيره، فمنهم مَن يخفُّ ويسرعُ قبول ما يسمعُه، ومنهم مُن يستعصمُ، فيقيم على لغته البتة...[31]". ألا ترى هذا الأعرابي الذي قرأَ على أبي حاتم: (طيبى لهم وحسن مآب)، فقلت طوبى، فقال: طِيبى، قلت: طُوبى، قال: طِيبى. فلمَّا طالَ عليّ الوقت قلتُ: طُوطُو، فقالَ: طِي طِي! أفلا تـرى إلى استعصامِ هذا الأعرابي بلغته وتَرْكِـهِ متابعة أبي حاتم[32]".

يقول أبو عمرو الدَّاني (تـ: 444هـ) في كتابه (المقنع في رسم مصاحف الأمصار): "اعلم أنَّ المصاحفَ اتفقتْ على رسم ما كان من ذواتِ الياء من الأسماء والأفعال بالياء على مراد الإمالة وتغليب الأصل وسواء اتّصل ذلك بضمير أو لم يتصل أو لقي ساكنا أو متحركا وذلك نحو: "الموتَى، والسلوَى، والمرضَى، والأَسرَى، وشتَّى، وصرعَى، وطوبَى، والحسنَى، ولليسرَى، وللعسرَى، والبشرَى، وموسَى، وعيسَى.... واتفقت المصاحف على رسم ما كان من الأسماء والأفعال من ذوات الواو على ثلاثة أحرف بالألف؛ لامتناع الإمالة فيه وذلك نحو: " الصَّفا، شَفا، سَنا، خَلا، عَفا... إلخ[33].

هذا، وللإمالة رواسب في كثير من اللَّهجات العاميَّة المتداولة في العصر الحاضر، وخاصة عند أهل بني غازي بليبيا وعند جميع العرب النازحين إلى مصر من ليبيا (البراعصة، الفوايد، الرماح، الحرابي، أولاد علي، سمالسوس، الضعفاء...إلخ) ومقام معظمهم في المنيا وبني سويف والفيوم.

6. فائدةُ الإمالة من النَّاحية الصَّوتيَّة

1.6. رَأيُّ القدماء:

يَتفقُ المحدثون من الباحثين مع القدامَى في تحديد فائدة الإمالة من النَّاحية الصَّوتية. فيرى ابنُ الجَزَري (تـ: 833هـ) أنَّ "فائدةُ الإمالةِ هي سهولة اللَّفظ، وذلك أنَّ اللِّسان يرتفعُ بالفتحِ وينحدرُ بالإمالةِ، والانحدار أخفُّ على اللِسانِ من الارتفاع، فلهذا أَمَالَ مَنْ أَمَالَ. وأمَّـا مَن فتَـحَ فَإنَّه رَاعَى كـون الفتــحِ أمتَن أو الأصل[34]".

2.6. رأيُّ المُحدَثين:

أمَّا المحدثون فيرون: "أن الانتقالَ من الكسرِ إلى الفتحِ أو العكس يتطلبُ مجهودًا عضليًّا أكبرَ مِمَّا لو انسجمتْ أصواتُ اللِّين بعضها مع بعض بأن تصبحَ متشابهة؛ لأنَّ حركةَ الإمالةِ أقرب منها إلى الفتحة[35]". ويرى الدكتور الرَّاجحي: " أنَّ أهلَ الباديةِ يميلونَ في كلامِهم إلى الاقتصادِ في المجهودِ العضلي، والإمالةُ تُحققُ لهم ذلك بما فيها من انسجام بين الأصوات[36].

30 المصدر السابق: 2/143.

31 المصدر السابق: 1/384.

32 المصدر السابق: 1/385.

33 ينظر: المقنع في رسم مصاحف الأمصار أبو عمرو الداني، والجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي، إبراهيم بن محمد، تحقيق:غانم قدوري، بغداد، 1408هـ- 1988م.

34 ينظر: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ج 2 ص 35.

35 ينظر: في اللَّهجات العربية، ص 67.

36 ينظر: اللَّهجات العربية في القراءات القرآنية، ص 141.

ونذكر في هذا الصَّدد أنَّ الذين اعتادوا على الإمالة من الصِّغر يكون من العسير عليهم أن ينتقلوا إلى الفتح، الأمر نفسه ينطبق على الذين اعتادوا الفتحَ منذ الصِّغر؛ لأنَّه صارَ جزءًا من تركيبهم الصَّوتي، فيصبحُ الانتقالُ إلى غيره فيه مَشقةٌ صَوتيةٌ وجهدٌ عضليٌّ ليس باليسير عليهم.

كما أنَّ الفتحَ والإمالةَ قد انتقلا إلى لهجاتنا الحديثة فلم تعد الإمالة لهجة البدو، ولا الفتح لهجة الحضر بعد أن غابتِ البداوةُ أو كادتْ؛ في الشَّكل على الأقل؛ عن حياتنا العربية المعاصرة، وإنَّما أصبح كلٌّ منهما من الخصائص الصَّوتيَّة التي تَشيعُ لدى أهل هذه المدينة أو تلك، وتلك القرية أو غيرها.

7. اختلاف القراءات القرآنية وعلاقته باللَّهجات

ترجعُ معظم وجوه الاختلاف بين القراءات القرآنية إلى اختلاف اللَّهجات العربية؛ فقد شاء الله تعالى من تغير هذه الوجوه أن ييسرَ قراءةَ القرآن لمعظم قبائل العرب وبطونها التي كانت حينئذ في الجزيرة العربية، وفق ما درجت عليه ألسنة كل منها في نواحي الأصوات والمفردات والاشتقاق والتراكيب وطرق الأداء.... وما إلى ذلك. ويدلُّ على ذلك الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: "أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللّه عليه وسلَّمَ كان عند أضاة بني غفار (وهو مستنقع في المدينة كان ينسب إلى هذه القبيلة) فأتاه جبريلُ، فقال: إنَّ اللّهَ يأمرُكَ أن تُقرئ القرآنَ على حرفٍ (أي على وجهٍ واحدٍ من وجوه لهجات العرب) فقال: سل الله معافاته ومعونته، فإنَّ أمَّتي لا تطيقُ ذلكَ؛ (لأنَّها متعددة اللَّهجات فلا تُطيقُ قراءةَ القرآن وفقَ لهجةٍ واحدةٍ)، ثُم أتاه الثانيةَ، فقال: اقرأ على حرفَيْن، فقالَ له مثل ذلك، ثم أتاه الثالثةَ بثلاثٍ، فقال له مثلَ ذلك، ثم أتاه الرابعةَ فقال: إن اللّهَ يأمرُكَ أن تُقرِئ أُمَّتَكَ على سبعةِ أحرفٍ، فأيَّما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا"[37].

فهذا الحديث صريح في أنَّ الغرض الأساس من اختلاف هذه الوجوه هو تيسير قراءة القرآن لمختلف القبائل، حتَّى تستطيعَ كلُّ قبيلةٍ منها قراءتَه وفقَ مَا درجتْ عليه ألسنتُها. وذلك أنه يصعب على أفراد قبيلة ما الانتقال من طرائق لهجتها إلى طرائق لهجة أخرى، بل قد يكون ذلك غير مقدور عليه ألبتَّة، وخاصة في طوائف الشيوخ والنساء والأميِّين، وهذه الطوائف كانت تستقطب حينئذ معظم العرب. وما قلنا في القبائل نقول مثله في بطون القبيلة الواحدة[38].

هذا، وتدلنا هذه القراءات على وجوه كثيرة من وجوه الاختلاف بين اللَّهجات واللُّغات العربية القديمة، وما تركته هذه اللُّغات واللَّهجات من آثار في اللَّهجات العامية المتداولة في الوقت الحاضر في مختلف البلاد العربية وخاصة مصر.

ومن أهم هذه الوجوه ما يتعلق بالنَّواحي الأربع الآتية:

أ. اختلاف القراءات في وجوه الأداء؛ تبعًا لاختلاف اللُّغات واللَّهجات العربية القديمة، كالإمالة والتَّسهيل، والإدغام، وترقيق بعض الحروف (وخاصة الراء)، وتغليظ حروف أخرى (وبخاصَّة اللام المفتوحة عند وقوعها بعد صاد أو ضاد أو طاء أو ظاء مفتوحة أو ساكنة)، ونقل حركة الحرف إلى الساكن قبله مع حذف هذا الحرف وهو المسمى بالنَّقلِ عند القرَّاء، والهمز وعدمه، ومخارج الحروف وما إلى ذلك من الوجوه.

37 شرح النووي على مسلم: 103/6.

38 ينظر: اقتراح الدكتور علي عبد الواحد وافي، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي قدمه إلى لجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية، من الدكتور علي عبد الواحد (عضو اللجنة)، وقد وافقت اللجنة عليه، وأخذت في تطبيقه في عدة جلسات، عرض على مجلس المجمع في 18 فبراير سنة 1985م، في الدورة الحادية والخمسين. ونشر بمجلة المجمع، بالجزء 57، ص 9 - 15.

ب. اختلاف القراءات في شكل الكلمات؛ تَبعًا لاختلاف اللُّغات واللَّهجات العربية القديمة، ففي القرآن الكريم مئات من الكلمات اختلف شكلها باختلاف القراءات، وكل شكل منها يمثل لغةً أو لهجةً عربيةً قديمة.

ت. اختلاف القــراءات في وزن الأفعــال وما يتصرف منها، وفي الجمع والتذكير والتأنيث تبعًا لاختلاف اللُّغات واللَّهجات العربية القديمة.

ث. اختلاف القراءات في الإعراب تبعًا لاختلاف اللُّغات واللَّهجات العربية القديمة.

وهناك وجه آخر وجَّه نظرَنا إليه الأستاذ محمد شوقي أمين في مذكرته القيمة الملحقة بهذا البحث. وهو اختلاف معاني بعض المفردات القرآنية تبعًا لاختلاف اللَّهجات، وإن كان هذا الوجه لا علاقة له باختلاف القراءات؛ لأن هذا النوع من المفردات لا تختلف في قراءته القراءات، وينبغي أن يخصص لهذا الموضوع بحث على حدة[39].

39 ينظر: القراءات واللَّهجات: الدكتور علي عبد الواحد وافي، اقتراح قُدّم إلى لجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية، من الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد (عضو اللجنة)، وقد وافقت اللجنة عليه، وأخذت في تطبيقه في عدة جلسات، عرض على مجلس المجمع في 18 فبراير سنة 1985، في الدورة الحادية والخمسين. ونشر بمجلة المجمع، بالجزء السابع والخمسين ص 9 - 15.

الفصل السَّادس

أثرُ المناسبة الدلالية لتعاطف الخبر والإنشاء في أداء المعنى في النَّص القرآني

الفصل السَّادس

أثرُ المناسبة الدلالية لتعاطف الخبر والإنشاء في أداء المعنى في النَّص القرآني

1. مدخل:

إنَّ أعظم ما يبلغ المتكلمُ به البيانَ، ويقعُ به الفهمُ والإفهامُ أن تَتمَّ المعاني بتمام الألفاظ على أساس جامعِ المناسبة الدلالية بينها، وإلَّا كان الفصلُ والاستئنافُ الذي يُؤْمَنُ به اللّبس عند وَصْلِ الكلام.

هذا، ويُعدُّ الخلاف في تعاطف الإنشاء والخبر عند النُّحاة والبلاغيين والمفسرين مظهرًا من مظاهر البحث عن هذا الانسجام الدلالي بين التراكيب على مستوى الجملة أو مستوى النَّص اللغوي.

ويرتكز البحث في دراسة هذا الخلاف على أساس أنَّ الكلام كلَّه خبرٌ والإنشاءُ محوَّلٌ عنه، باستعمال أدواتٍ مخصوصةٍ، وصيغٍ صرفيَّةٍ معينة. وهذه الفرضية كانت نتاجًا لخلاف أوسع، لم تحسمه النَّظرية اللُّغويَّة عند البلاغيين وفلاسفة اللُّغة في تعريف الخبر والإنشاء، ووضع محددات لغويَّة ودلالية في التَّمييز بينهما.

وتكمن إشكالية تعاطف الخبر والإنشاء في اختلاف المعاني بينهما، فالخبرُ يدلُّ على معَانٍ تحتملُ الصدقَ والكذبَ، والإنشاءُ بخلاف ذلك، ومن ثَم فإنَّ جهة الارتباط الدلالي بينهما مُنفَكةٌ عند تعاطفهما، وهو ما عَوَّل عليه البلاغيون وغيرهم من علماء العربية في إصدار أحكامهم على هذه الظَّاهرة في النَّظرية والتَّطبيق.

ووفقًا لهذه الإشكالية؛ فإنَّا نسعى -هنا- إلى تحقيق عدة أمور، منها:

- الوقوفُ على أسباب الخلاف بين النُّحاة والبلاغيين والمفسرين في تعاطف الخبر والإنشاء، وبيان مفهوم المناسبة عند كلٍّ منهم.
- الوقوفُ على أثر إشكالية المناسبة الدلالية لتعاطف الخبر والإنشاء في أداء المعنى في النَّظم القرآني.
- بَيانُ أثر التَّماسكِ النّصي في حلِّ إشكالية المناسبة الدلالية في تعاطف الخبر والإنشاء، وذلك بتجاوز التَّحليل اللُّغوي للجملة إلى النَّص. وقد سعينا إلى تحقيق ذلك من خلال منهج وصفي لظاهرة عطف الخبر على الإنشاء، وتحليل ومقارنة آراء البلاغيين، والنُّحاة، والمفسرين في قبولها ورفضها من منظور المناسبة الدلالية لمعانيها، وبيان تفاوت آرائهم في شقيها النَّظري والتَّطبيقي.

أودُّ أن أشيرَ إلى أنَّ الدِّراسات البلاغيَّة واللُّغويَّة التي عُنيَتْ بدرس الفَصْل والوَصْل لم تتعمَّق في بحث مسألة الخلاف في تعاطف الخبر والإنشاء والكشف عن أسبابه، ولم تحدد مفهومًا واضحًا للمناسبة الدلالية في هذا الباب[1].

2. إشكالية المناسبة الدلالية لتعاطف الخبر والإنشاء

1.2. المناسبة الدلالية وسر تعاطف الخبر والإنشاء

المُناسَبةُ: تعني المشاكلةَ، والمقاربةَ، واتصالَ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ[2]. ومرجعها في الكلام إلى مَعنىً جَامعٍ بين جُمَلِه، سواءٌ أَكان هذا الجامع عَقليًّا أم خَياليًّا أم وهميًّا[3]، أَوْ غير ذلك من أنواع العلاقات التي يَقْوَى بها الارتباط بين الجمل؛ ويصبحُ لها مَساغٌ في العقل والذَّوق؛ لأنَّك إذا " جِئتَ فعطفتَ على الأول شَيْئًا ليسَ منه بسَببٍ، ولا هو مِمَّا يُذكَرُ بذكرِه ويتَّصِلُ حَديثُه بحَدِيثه لم يَستقْم. فلو قلتَ: "خَرجتُ اليومَ من دَاري"، ثم قلتَ: "وأحسنَ الذي يَقولُ بَيتَ كَذا "!، قلتَ ما يُضْحَكُ منه (لعدم التَّعلُّق). ومن هاهنا عَابوا أبا تَمَّام في قوله:

لا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أنَّ النَّوَى　　صَبِرٌ وأنَّ أبَا الحُسَيْنِ كَرِيمُ[4]

وذلك لأنَّه لا مناسبةَ بينَ كَرَمِ أبي الحسين ومرارةِ النَّوى، ولا تَعلُّقَ لأَحِدهما بالآخرِ، وليس يقتضي الحديثُ بهذا الحديثَ بذاكَ[5]". وهذه هي المناسبةُ المعنوية التي يَصِحُّ لأجلها عطف الجمل بعضها على بعض.

وإذا كان درس الفَصْل والوَصْل مَبنيًّا على العلم بما ينبغي أن يُصْنَعَ من عطف بعض الجمل على بعض، أو ترك العطف بينها، وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة - فإنَّ ذلك كلَّه رَهنٌ بتحقق المناسبة أو انتفائها بين الجمل، وهذا ما يبدو من تنظير البلاغيين للفَصْل والوَصْل على النحّو الآتي:

الفَصْلُ كما حَدَّه البلاغيون: هو تَركُ العطف في الجمل، والمَجِيءُ بها منثورةً، تُسْتَأْنَفُ واحدةٌ منها بعد أخرى[6]؛ لقوة الصِّلةِ المعنويَّةِ المحققةِ للربط بين الجُمَل؛ ولوجود علاقات منطقيَّة بينها، كالتَّوكيد والبدليَّة، والبيان، تجعلها مُستغنِيةً عن العطف، "فَلا يَكونُ فيها العَطفُ البتَّةَ؛ لِشبْهِ العَطْفِ فيها - لو عُطِفَتْ- بعَطْفِ الشَّيءِ على نَفْسِه[7]"؛ وهذا الفَصْلُ المتمثِّلُ في تَرك الرَّابط أو العاطف، ليس فصلًا دلاليًّا؛ لأنَّك إنْ حَاولتَ أن تُقحمَ عليها رَابِطًا، فإنَّك تُضعفُ نَسجَها، وتُفقدُها كثيرًا من مقاصدها ودلالاتها.

وقد يكون سبب الفصل عدم المناسبة بين الجمل؛ كأن تكون الجملة "سَبيلُها مع التي قبْلَها سبيل الاسم مع الاسم لا يَكونُ منه في شَيءٍ، فلا يَكونُ إيَّاه ولا مُشارِكًا له في معنىً، بل هو شَيءٌ إذا ذُكِرَ

1 ينظر على سبيل المثال: الفصل والوصل في القرآن الكريم، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2، 1997م.
- الإعجاز في نسق القرآن- دراسة للوصل والفصل بين المفردات، د. محمد الأمين الخضري، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1423 هـ/ 2002 م.

2 تاج العروس: 4/265. وينظر: معجم مقاييس اللغة: مادة (نسب).

3 ينظر: مِفتاح العلوم: 253، 254. والإيضاح: 3/133 وما بعدها.

4 البيت من قصيدته في مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم. (الديوان 2/ 260) التي مطلعها:
أسقى طلولَهم أجش هزيم　　وغدتْ عليهم نضرة ونعيم

5 دلائل الإعجاز: 225. وينظر: مِفتاح العلوم :271.

6 ينظر: دلائل الإعجاز: 222. وعروس الأفراح: 1/ 479.

7 دلائل الإعجاز: 243.

لم يُذكَر إلَّا بأمرٍ يَنفردُ به، ويكونُ ذِكرُ الَّذي قبلَه وتَركُ الذِّكر سواءً في حالِه؛ لعدم التَّعلُّق بينَه وبينَه رأسًا. وحقُّ هذا تَرْكُ العطفِ البتَّة[8]".

أمَّا الوَصْلُ، فهو عندهم: " العلمُ بما ينبغي أن يُصْنَعَ في الجمل من عطف بعضها على بعض[9]"؛ إذا ما جمَعتِ المناسبة بينها.

هذا، وقد خصَّ البلاغيون باب الوصل بـ " الواو" دون سائر حروف العطف لكونها "لَا تُوجب إلَّا الإشراك بَين الشَّيئين فَقَط في حكم وَاحِد[10]". قال سيبويه في ذلك : "ولم تُلْزِم (الواو) الشَّيئين أَنْ يكون أحدُهما بعد الآخَر. ألا ترى أنَّك إذا قلتَ: مَرَرتُ بزيدٍ وعمروٍ، لم يكن في هذا دَليلٌ أنَّك مَرَرتَ بعمروٍ بعد زيدٍ[11]". أي أن العطف بـ "الواو" لا يلزم التَّرتيب ولا التَّراخي ولا التَّعقيب الذي يتعلَّق بالفاء وبثم، وبأو[12]، وما تُثيرُه هذه الرَّوابطُ من تحَريك الزَّمن وتمديده ووجوب المهلة فيه. "وَهَذَا قَولُ الجمهور من أئمة العربية والأصول والفقه، ونَصَّ عليه سيبويه في بضعَةَ عشرَ موضعًا في كتابه، وَنقلَ أبو علي الفارسي اتفاقَ أئمة العربية عليه.... وهو المشهور الذي رجَّحَه المُحَقِّقون[13]".

وقد تفاوتت نظرةُ كلٍّ من النُّحاة والبلاغيين والمفسرين إلى معنى المناسبة الذي يقعُ الإشراكُ بسببه بين الجمل عند تحليل التَّراكيب اللُّغويَّة المتعاطفة؛ فكان ثمرة ذلك اختلافهم في جواز عطف الخبر على الإنشاء، وعكسه.

2.2. المناسبة عند النُّحاة

أجمعَ النُّحاةُ على إفادة (الواو) الإشراكَ بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الإعرابي، لكنَّهم اختلفوا في التَّوسع في فهم دلالة هذا الإشراك عند تعاطف الخبر والإنشاء، وذلك على فريقين:

- **الفريق الأول:** يرى عدم جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه[14]؛ لأنَّه - فيما يرون- لا مشاكلةَ في المعنى أو اللَّفظ تقضِي بعطف أحدهما على الآخر. وقد وضعَ الفرَّاءُ (ت:207هـ) قاعدةً في تعاطف الخبر والإنشاء عند توجيه قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء:27)، يقول: "إذا رأيتَ الفعل منصوبًا وبعدَه فِعلٌ قد نُسِقَ عَلَيْهِ بواو.... فإنْ كَانَ يُشاكِلُ معنى الفعل الذي قبله نسقتَه عليه. وإنْ رأيته غير مُشاكِلٍ لمعناهُ استأنفته فرفعته، رُفِعتْ (**وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ**) لأنّها لا تُشاكِلُ (أَن يَتُوبَ)، ألا ترى أنَّ ضَمَّك إيَّاهُمَا لا يَجوز، فاستأنفتَ أو رددتَه على قوله (**وَٱللَّهُ يُرِيدُ**)[15]".

وهذا التَّوَجُّهُ المبني على المناسبة الدلالية أو المخالفة نجده أيضًا عند السُّهيلي (ت:581هـ) في رفضه عطف الدُّعاء على الخبر، يقول: " فلو قلتَ: مَرَرتُ بزَيدٍ وأَكْرَمَ اللهُ عُمرًا، لكانَ كلامًا غَثًّا[16]"؛ لأنَّك تكون قد عطفتَ على الأَول شَيئًا ليس منه بسَببٍ، ولا هُوَ ممَّا يُذْكَرُ بذكرِه، ويتَّصِلُ حديثُه؛ ولذلك ذَهَبَ

8 المصدر السابق: 243

9 المصدر السابق: 222. وينظر: عروس الأفراح: 1/ 481.

10 علل النَّحو: 1/377. وينظر: الكتاب: 1/437،438. والمقتضب:1/10. والأصول في النَّحو:2/55. والمفصَّل في صنعة الإعراب:403. ومغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب: 463.

11 الكتاب: 1/291. وينظر: دلائل الإعجاز 224.

12 ينظر: الأصول في النَّحو: 2/76.

13 الفصول المفيدة في الواو المزيدة: 67 وما بعدها. وينظر: دلائل الإعجاز 224.

14 أمثال: السُّهيلي (ت: 581هـ) وابن عُصْفُور (م: 597 ه) وابن مَالك (ت: 672هـ). ينظر: مغني اللَّبيب: ابن هشام الأنصاري (ت: 761هـ) (1/ 470، 554).

15 معاني القرآن :2/ 68.

16 نتائج الفكر في النَّحو: 44، 45.

ابن هشام الأنصاري (ت :761هـ) إلى إبطال العطف في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ (الأنعام:121)؛ لتخالفِ الجملتين بالإنشاء وَالْخَبَر[17]. وهو يقصد من إبطال العطف بين الجملتين أن تكون (الواو) للاستئناف وليس للعطف الذي يقضي بإشراك الثَّاني فِيمَا دخل فِيهِ الأول معنًى وحكمًا.

ويبدو أنَّ هذا الفريق من النَّحاة لم يتوسَّع في طلب وجوه المشاكلة (المناسبة) التي يقعُ بسببها الإشراكُ بين الخبر والإنشاء؛ فمنعوا عطف الخبر على الإنشاء أو الإنشاء على الخبر؛ لغياب اتفاق المعاني وتناسب ألفاظها.

- **الفريق الثَّاني:** وهم أكثر النُّحاة، فقد أجازوا تعاطف الخبر والإنشاء؛ إذا ما استقام المعنى، فإنْ اضطرب، كان الكلام خُلْفًا، وامتنع العطف فيه.

يقول سيبويه: " واعلم أنَّه لا يجوز: مَنْ عبد الله، وهذا زيدٌ الرجلين الصَّالحين رَفَعتَ أو نَصَبتَ؛ لأنَّك لا تُثْنِي إلَّا على مَن أثبتَه وعلمتَه، ولا يجوز أن تَخلِط مَن تعلم ومَن لا تعلم، فتجعلهما بمنزلة واحدة، وإنَّما الصفة علَمٌ فيمَن قد علمتَه[18]".

ولم يكن إنكار سيبويه العطف؛ لاختلاف الجملتين في الخبر والإنشاء، وإنَّما كان بسبب اضطراب المعنى الناتج عن عطف الصِّفة؛ إذْ كيف تَجمعُ في الوصف بين مَن تعلم، ومَن لا تعلم؟!

وقد وَافَقَ أبو حيَّان الأندلسي (ت:745هـ)، وتلميذه السَّمين الحلبي (ت:756هـ) مذهبَ سيبويه (ت:180هـ) في جواز عطف الجملة الطَّلبيَّة على الجملة الخبريَّة والعكس[19]، مستدليْنِ بقول امرئ القيس:

وإنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهرَاقَةٌ   وهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِن مُعَوَّلِ؟[20]

حيث عطفَ الاستفهامَ في الشَّطر الثَّاني على الخبرِ في الشَّطر الأول.

وقد بنى بعضُ النُّحاة المجيزين لتعاطف الخبر والإنشاء رأيهم على فكرة تحويل تركيب الخبر إلى الطَّلب باستعمال أدوات مخصوصة، أو تنغيم معين، حيث رأوا أنَّ الإنشاءَ هو خَبَرٌ في الأصل، فـ "معنى قولك (قُمْ): أَطْلُبُ قِيامَك، وكذلك الاستفهامُ والنَّهي[21]"، ومن ثَم فلا إشكالَ عندهم في عطف أحدهما على الآخر؛ استنادًا إلى أنَّ الكلام كلَّه خبرٌ في الأصل.

3.2.المناسبة عند البلاغيين

شاعَ في الدَّرس البلاغي أنَّ الخبر والإنشاء لا يُعطف أحدهما على الآخر وأنَّه - وإنْ جاز ذلك لغةً- لا يجوز بلاغة[22]. وهو ما أَشَارَ إليه الإمامُ عبد القاهر في قوله: "لا يُعْطَفُ الخَبرُ على الاستفهام[23]"؛ إذ لا مناسبةَ بينهما ولا جامع في ظاهر اللَّفظ. إلَّا أنَّهم -حفاظًا على صحة المعنى- أجازوا تعاطف الخبر والإنشاء في موضعين:

17 ينظر: مغني اللبيب 470.632.

18 الكتاب: 2/60.

19 الدُّر المصون: 1/208، 209. وينظر: البحر المحيط: 1/179: 180.

20 البيت من معلقة امرئ القيس. (الديوان: 111)

21 شرح المفصل لابن يعيش: 1/72.

22 عروس الأفراح:1/496. وينظر: المطول: 440

23 دلائل الإعجاز:233. لم يفصِّل الإمام عبد القاهر القولَ في هذه القضية على نحو شافٍ.

- **كمال الانقطاع مع إيهام خلاف المقصود:** ويُقصد به: الوَصْل بين الجملتَيْن المختلفتَيْن خَبرًا وإنشاءً؛ دفعًا لتوهم خلاف المقصود. وهو عكس الفَصْل للقطع والاستئناف، فالمقصود بـ " كمال الانقطاع "اختلاف الجملتَيْن خَبرًا وإنشاءً. أمَّا المقصـود بقولهـم: "مع الإيهـام" يعني: أنَّ ترك العطف بينهما يؤدِّي خلاف المقصود.

ومرجعُ الإيهام أنَّ "لإحدى الجملتين حُكمًا لا تريد أن تعطيه للأخرى، أو كان: لأنَّ عطفها على الأخرى يُوهم العطف على غيرها[24]". فالعدول عن الفَصْل إلى الوَصْل في مثل هذه الحالة يكون لغرضٍ دلالي، هو "أمن اللَّبس". ومن شواهده قول البلغاء: "لا وأيدكَ الله"[25].وأيضا ما رُوي أنَّ رجلًا مَرَّ بأبي بكر-رضي الله عنه- ومعه ثَوبٌ، فقال له أبو بكر: أ تبيع الثوب؟. فقال: "لا عافاك الله". فقال أبو بكر: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: "لا، وعافاك الله[26]".

فالفَصْلُ في هذا وأمثاله يُفضِي إلى اللَّبس؛ حيث يتحوَّلُ قصدُ الرَّجل من الدُّعاء لأبي بكر بالعافية إلى الدُّعاء عليه بعدم العافية. وإنْ وَجَبَ اعتبار السِّياق ومقتضى الحال، ونغمة الصَّوت في مثل هذا[27].

- **الوصل للتوسط بين الكمالين:** أطلق عبد القاهر على الوصل للتوسط بين الكمالين "العطفُ لما هو واسطةٌ بينَ الأمرينِ، وكانَ له حالٌ بينَ حالَيْنْ[28]". ويشترط فيه وجود جهة جامعة بين الجملتَيْن، كالتَّضاد، أو التَّناسب، أو غير ذلك[29]؛ وإلَّا كان شأنهما شأن كمال الانقطاع؛ لأنَّه "لا يُتَصوَّرُ إشراكُ بينَ شيئَيْن حتَّى يَكونَ هناك مَعنىً يَقعُ ذلك الإشراكُ فيه[30]". فالواو لا تَجيءُ للعطف بين الجمل" حتَّى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضَامًّا له[31]".

ومن أمثلة التوسط بين الكمالين: أن تكون الجملتان إنشائيتَيْن مَعنىً، وإحداهما خَبريَّة لفظًا، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ (البقرة:83) حيث عُطِفت جملة ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ** ﴾ الإنشائيَّة لفظًا ومعنىً، على جملة: (**لَا تَعْبُدُون**) الخبرية لفظًا الإنشائيَّة مَعنىً.

يقول أبو منصور الأزهري (ت: 370هـ) في معاني القـراءات: "وكـان في الأصل (أن لا يعبدوا)، فلما حذف (أن) رفعَه[32]". على تقدير: "وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل قائلين لهم: لا تعبدون إلَّا اللَّه، وهو إخبَارٌ في معنَى النَّهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أَبلغُ من صريح الأمر والنَّهي؛ لأنَّه كأنَّه سُورِعَ إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه[33]"؛ ولذلك ضُمِّن الخبر في (لَا تَعْبُدُون) معنَى لا تعبدوا.

ويؤيِّدُ هذا " قراءةُ أُبَيٍّ، وابن مسعود: (لا تعبدوا إلَّا الله)، بالجزم على النَّهي، ويدلُ على أنَّها نهيٌ وجزمٌ أنه قال تعالى: ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ كما تقول: افعلوا ولا تفعلوا، أو لا تفعلوا وافعلوا[34]"؛ فلو لم يكن الخبر في معنى النَّهي لما حَسُن عطف الأمر عليه؛ لما بين الأمر والخبر المحض من التَّنافر، وليس

24 عروس الأفراح: 1/482.

25 الإيضاح 3/126.

26 البيان والتَّبيين 1/219. وينظر: الفصول المفيدة في الواو المزيدة: 136.

27 يمكن دراسة هذا النَّمط من الحديث دراسة تداولية pragmatics وفقًا لمبدأ الاستلزام الحواري conversational implicature الذي يُعنى بالبحث في المقصود الذي يختفي وراء الملفوظ.

28 دلائل الإعجاز: 243.

29 ينظر: مِفتاح العلوم: 229، 233. والإيضاح: 3/127 وما بعدها.

30 دلائل الإعجاز: 224، 225.

31 المصدر السابق: 224.

32 معاني القراءات: 1/160.

33 الكشاف: 1/159.

34 معاني القرآن: 1/53. وينظر: تفسير الطبري: 2/293. والكشاف: 1/159. والبحر المحيط: 1/457. والدر المصون: 11/460. وشرح المطول: 453.

كذلك الأمر والنهي؛ لالتقائهما في معنى الطَّلب. فالتَّناسبُ واضحٌ في الآية الكريمة بين الأمر بعبادة الله تعالى، والإحسان إلى الوالدين وذي القربي، يعضده مجيئ الأمر بإفراد الله تعالى وحده بالعبودية مقرونًا بالأمر ببرّ الوالدين في غير موضعٍ من القرآن الكريم[35].

وإجازةُ البلاغيين تعاطف الخبر والإنشاء في هذَيْن الموضعَيْن مَبنِيةٌ على عنايتهم بصحَّةِ المعنى؛ ولذلك أَوْلَوا مسألة "الجامع" - وهو الوصف الذي يُقرِّبُ بين الشَّيئَيْن ويقتضي الجمع بينهما- عنايتَهم؛ فراح الإمامُ السَّكاكي (ت:626هـ) يفصِّلُ القولَ في أنواعه؛ حيث قسَّمَه إلى جامع عقلي، وجامع وهمي، وجامع خيالي[36].

وهذه التقسيمات -رغم طابعها الفلسفي- شَاخِصَةٌ إلى المحافظة على صحَّة المعنى في الكلام؛ لأنَّكَ "إنْ جئتَ فعطفتَ على الأَوَّل شيئًا ليس منه بسببٍ، ولا هُوَ ممَّا يُذْكَرُ بذكرِه ويتَّصِلُ حَديثُه بحديثِه، لم يَستقْم. فلو قلتَ: "خرجتُ اليومَ من داري"، ثم قلتَ: "وأحسنُ الذي يقولُ بيتَ كذا"، قلتَ ما يُضْحَكُ منه[37]!". فالواجبُ أن تكونَ الحَالُ التي عليها أحدُهما، مضمومةً في النَّفسِ إلى الحالِ التي عليها الآخَرُ؛ ليسوغ قبولهما في الذَّوق والعقل.

وهذا هو مفهوم المناسبة (الجامع) لدى البلاغيين، الذي قصروه على تناسب الجمل المتفقة في معنى الخبر أو الإنشاء من جهة التَّنظير، أمَّا من جهة التَّطبيق فقد عوَّلوا على مقام الكلام وسياقاته، ودلالات الأساليب في تضمين الخبر معنى الإنشاء أو الإنشاء معنى الخبر.

4.2. المناسبة عند المفسرين

توسَّعَ المفسرون في مسألة تعاطف الخبر والإنشاء في القرآن الكريم بالنَّظر في علاقات الجمل بعضها ببعض على مستوى النَّص؛ انطلاقًا من مقولة أنَّ القرآن جملة واحدة[38]. وقد ساعدهم منهجهم التَّحليلي في تأويل عدم المناسبة الدلالية لتعاطف الخبر والإنشاء، استنادًا إلى أسباب النزول، وسياق الآيات[39]، أو التَّعويل على دلالات الأساليب، فإنْ حزَبَهم ما هدفوا إليه قالوا: بالعطف على التَّأويل، لَا عَلَى التَّنْزِيل، أو بالعطف على المعنى لا على اللَّفظ[40].

ويظهر لنا هذا في توجيه القرطبي (ت :671هـ) لعطف الخبر على الإنشاء في قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ (الشرح:1-2). يقول: "ومعنى (أَلَمْ نَشْرَحْ) قَدْ شَرَحْنَا، الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قوله في النَّسق عليه: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ فهذا عطفٌ على التَّأوِيل، لَا عَلَى التَّنْزِيلِ؛ لأنَّه لو كان على التَّنزِيل لقال: وَنَضَعْ عَنْكَ وِزْرَكَ. فدَلَّ هذا على أن معنى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ قد شرحنا. و(لَمْ): جَحْدٌ، وفي الاستفهام طرفٌ من الجَحْدِ، وإذا وقع جَحْدٌ، رجع إلى التَّحقِيق، كقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحُكِمِينَ ﴾ (التين:8). ومعناه: اللَّهُ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ. وكذا ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (الزمر:36). ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مَرْوَانَ:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا   وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُون رَاح

المعنى: أنتم كذا[41]".

35 ينظر: (النساء:36)، و(الأنعام:151)، و(الإسراء: 23).

36 ينظر: مفتاح العلوم: 232 وما بعدها. فالجامع العقلي: يجمع فيه العقل بين الجملتين بسببه في القوة المفكرة. والجامع الوهمي: يجمع بين الشَّيئين في القوة المفكرة جمعًا ناشئًا من جهة الوهم: كالتَّضاد وشبه التَّماثل. والجامع الخيالي: يجمع بين الشَّيئين في القوة المفكرة جمعًا ناشئًا من جهة الخيال: كالتَّقارن.

37 دلائل الإعجاز: 224، 225.

38 ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/521.

39 ينظر: الكشاف: 1/104.

40 ينظر: تفسير القرطبي: 20/105. وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/521.

41 الجامع لأحكام القرآن: 20/ 105. والبيت في ديوان جرير: 77.

فتوجيه عطف الخبر على الإنشاء في آية سورة الشَّرح يرجع إلى دلالة الاستفهام، لا إلى ظاهر لفظه؛ لذلك خرج الاستفهام إلى دلالة النَّفي التي تدل في هذا السِّياق على التَّحقيق والإيجاب، ممَّا يحقق المناسبة المعنويَّة بين الأسلوبَيْن: الخبري لفظًا ومَعنىً، والإنشائي لفظًا الخبري مَعنىً، ومن ثَم يقوي التَّناسب والعُلقَة بينهما. ولو كَانَ استفهامًا - محضًا- لم يكن مَدحًا، ولكان قَرِيبًا من الهجاء، وَلم يُعْطَ جرير على هَذَا الْبَيْت مائَة نَاقَة برعاتها[42].

3. التأويلات التطبيقية المناسبة لتعاطف الخبر والإنشاء

أدركنا في المبحث السَّابق أنَّ (المناسبة) هي أصلُ باب الفَصْل والوَصْل؛ حيثُ تترتبُ على وجودها أو غيابها قضايا تتعلق بتعاطف الخبر والإنشاء، وصحَّة المعنى، وتحقيق التَّماسك بين أجزاء الكلام.

ومن ثَم فسوف نعرض في هذا المبحث التَّطبيقي لعطف الإنشاء على الخبر وعكسه في بعض الآيات القرآنيَّة؛ بغيةَ الوقوف على وجوه المناسبة فيها، وذلك من خلال توجيه النُّحاة والبلاغيين والمفسرين وعلماء الوقف والابتداء للعطف فيها.

1.3. عطف الإنشاء على الخبر في النَّظم القرآني

وَرَدَ عطفُ الإنشاء على الخبر في غير موضعٍ من كتاب الله تعالى، ومن شواهده: (البقرة: 24- 25، 102، 155، 189، 222-223)، و(آل عمران :12، 173)، و(النِّساء:19)، و(التوبة:112)، و(إبراهيم:2)، و(مريم:46)، و(النَّمل: 10-9)، و(الأحزاب: 46 - 47)، و(الصَّف:13-10)، و(نوح: 24).

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:25-24).

اختلف النُّحويون والبلاغيون والمفسرون في توجيه العطف في الآية الكريمة، فالزَّمخشري (ت:538هـ) -وهو ممَّن يشترطون التَّناسب اللَّفظي في العطف بين الجمل-يتجاوزُ القولَ بعطف الإنشاء على الخبر في هاتين الآيتَيْن الكريمتَيْن إلى القول بعطف مجموع هذي على مجموع تلك. يقول: "فإنْ قلتَ: علام عُطِف هذا الأمرُ ولم يسبق أَمرٌ ولا نَهيٌ يصحُّ عطفه عليه؟ قلتُ: ليس الذي اعتُمدَ بالعطف هو الأمرُ حتَّى يُطلبُ له مُشاكِلٌ من أَمرٍ أو نَهيٍّ يُعطفُ عليه، إنَّما المعتَمد بالعطفِ هو جملةُ وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفةٌ على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زَيدٌ يُعَاقَب بالقيد والإرهاق، وبَشِّرْ عمرًا بالعفو والإطلاق"[43]. ويُمثِّلُ هذا العطفُ (عطف قصَّة على قصَّة)، القائمُ على ربط المعطوف بالمعطوف عليه أحدَ وجوه التَّماسك النَّصي في القرآن الكريم.

وفي توجيه آخر للزَّمخشري يسعى فيه إلى تحقيق التَّناسب اللَّفظي بين المعطوف والمعطوف عليه في الآيتين الكريمتين، نراه يلتمس للأمر في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أمرًا مشاكلًا له يصحُّ عطفه عليه. فيقول: "ولك أن تقول: هو معطوف على قوله؛ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبَشِّرْ يا فلان بني أسد بإحساني إليهم[44]".

42 الجمل في النَّحو: 265.

43 الكشاف : 1/ 104.

44 المصدر السابق: 1/ 104.

وقد ضَعَّفَ أبو حيان الأندلسي، والسَّمين الحلبي هذا التَّوجيه؛ " لأنَّ تبشيرَه للمؤمنين لا يترتب على قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾[45]، هذا فضلًا عن اختلاف المخاطَب في كلا الجملتَيْن.

إلَّا أنَّ الزَّمخشري يجتهد في أن يجدَ من القراءات القرآنية للآية الكريمة ما يُقوِّي رأيه في اشتراط التَّناسب اللَّفظي للعطف بين الجمل، فيقول: "وفي قراءة زيد بن عليٍّ رضي الله عنه: (وَبُشِّرَ) على لفظ المبنيّ للمفعول عطفًا على: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[46]". فهو يُعوِّلُ على هذه القراءة في إيجاد جهةٍ جامعةٍ للعطف في تُحققُ المناسبة بين صيغتي الفعلَيْن: (أعدت -وبشر)؛ ليكون العطف عطفًا للخبر على رَسِيله، وليس عَطفًا للإنشاء على الخبر. وهذا لا يَتأتَّى من إعراب (أُعِدَّتْ) جملة حالية؛ لأنَّ المعطوف على الحال حالٌ مثله، وجملة (وبشر) لا تصلح للحاليَّة[47].

وهكذا بَدَا توجيه الزَّمخشري للعطف في الآية ضعيفًا عندما لجَأَ إلى التماس ما يحققُ التَّناسبَ اللَّفظي بين الجملتين، بينما بدَا مقبولًا حينما نظر إلى مضمون الجملتين، الأمر الذي يؤكِّدُ ضعفَ رأيه في منع عطف الإنشاء على الخبر.

وقد اقتفى ابن هشام الأنصاري أثرَ الزَّمخشري في توجيهه العطف في الآية الكريمة، حينما نظرَ إلى المعنى الحاصل منهما؛ ولكنَّه لجأ إلى تقديرٍ يُحققُ من خلاله التَّناسبَ اللَّفظي بين الجملتَيْن المعطوفتَيْن؛ لأنَّه يشترطُ اتِّفَاقَ المعاني في العطف بين الجمل، فرأى أنَّ النَّظمَ في الآية "مَنظورٌ فيه إلى المعنى الحاصل منه، وكأنَّه قيل: وَالَّذين آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات لَهُم جنَّات فبشِّرْهم بذلك[48]". ويكون الكلام على هذا التَّقدير من قَبِيل عطف الخبر على الخبر؛ وليس من قَبِيل عطف الإنشاء على الخبر.

أمَّا أبو حيان الأندلسي، وتلميذه السَّمين الحلبي؛ فقد ذهبا إلى "أنَّ عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن تتفقَ معاني الجمل[49]" في الخبريَّة والإنشائيَّة؛ ولذلك قالَا بجواز عطف الجملة الخبريَّة على الجملة غير الخبريَّة في الآية الكريمة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمنوا ﴾ مُسْتَدِلَّيْن بقول امرئ القيس:

وإنَّ شفائي عَبرة مهراقة   وهَلْ عند رسمٍ دارِسٍ من معول

وهذا مذهب سيبويه والجمهور؛ لأنَّهم شاخصون في عطف الجمل إلى اتِّساق المعنى الدلالي للتركيب كلِّه وصحته، وإنْ اختلفت معاني الجمل في الخبر والإنشاء؛ لذلك لم يشترطوا التَّناسب اللَّفظي للعطف بين الجمل.

أمَّا المفسرون فينظرون إلى مجمل المعنى في النَّظم القرآني بوصفه جملةً واحدةً، فالآية عندهم موصولة مع التي قبلها غير معزولة عن سياقها؛ لأنَّها جزء من كلٍّ متماسك. وهذا ما نلمسه في توجيه الطَّبري (تـ :310هـ) للعطف في الآية، حيث ربطَ معنى الآيتين ببعضهما البعض فقال: "وهذا أَمرٌ من الله تعالى لنبيَّه محمد صلى الله عليه وسلَّم بإبلاغ بشارتِه خلقَه الذين آمنوا به وبمحمد صلى الله عليه وسلَّم، وبما جاء به من عند ربِّه، وصدَّقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصَّالحة، فقال له: يا محمد بَشِّرْ مَن صَدَّقكَ أنَّك رسولي، وأنَّ ما جئتَ به من الهدى والنُّور فمن عندي...، أنَّ له جناتٍ

45 الدر المصون: 1/209. وينظر: البحر المحيط: 1/179.

46 المصدر السابق: 1 /104.

47 ينظر: البحر المحيط: 1/179. والدر المصون: 1/209.

48 مغني اللبيب: 628.

49 البحر المحيط: 1/ 179. وينظر: الدر المصون: 1/ 208.

تجري من تحتها الأنهار خاصَّةً، دُون مَن كذَّبَ بك وأَنكرَ ما جئته به من الهدى من عندي.... فإنَّ لأولئك النَّارَ التي وقُودها النَّاسُ والحجارة[50]".

ووجهُ المناسبة بين الآيتين - فيما يبدو من كلام الطَّبري- هو التَّضاد بالجمع بين التَّرهيب من عذاب الكافرين، والتَّرغيب في ثواب المؤمنين؛ لأنَّه لما بَيَّنَ سبحانه في هذه الآية: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ** ﴾ ما أَعدَّه للكافرين الذين قامتْ عليهم الحُجَّةُ، فجحدوا بها، أرادَ أن يبيِّنَ في هذه الآية: ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ حَالَ الذين ظهرَ لهم الدَّليل، فآمنوا، ولَاحَ لهم نورُ الهداية فاهتدوا. جَريًا على سَنَنِه المعهود من ذِكر التَّرغيب مع التَّرهيب، وضَمِّ البشارة إلى الإنذار والجمع بين الوعد والوعيد والجنَّة والنَّار[51]". فالكلام متصلٌ، يأخذُ بعضه بحُجز بعض؛ ولذلك عطفَ الجملةَ على ما قبلها؛ لأنَّها متمِّمةٌ لفائدتها، إذْ من المناسبة بعد بيان جزاء الكافرين، أن يُبيِّنَ جزاءَ المؤمنين، لا سيما أنَّ القرآن نَظمٌ يُعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعضٍ. وهذا ما أكَّده الإمام البيضاوي (ت685هـ) بقوله: إنَّ المقصود بالعطف هنا هو "عطف حال مَنْ آمَنَ بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حالِ مَنْ كَفَرَ به، وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلهية مِن أن يشفع التَّرغيب بالتَّرهيب، تنشيطًا لاكتساب ما يُنجِّي، وتثبيطًا عن اقتراف ما يُردِي[52]". وهذا دَأبُ القرآن أبدًا، إذا ذَكرَ عقوبةَ الكفار أتبعَهَا ذكرَ ثواب المؤمنين لتسكنَ إليه قلوبُهم، فتزول عنهم الوحشة؛ فيثبتوا على إيمانهم، ويرغبوا في ثواب ربِّهم.

وقد لفتَ أبو السعود العمادي (ت :982هـ) إلى هذا المعنى في تفسيره، حيث قال: "وكأنَّ تغيير السَّبكِ؛ لتخييل كمال التَّباين بين حال الفريقين[53]".

وهكذا يرى المفسرون أنَّ عطف الإنشاء على الخبر في الآية المباركة جاء موافقًا لأسلوب النَّظم القرآني، وطريقته في الجمع بين أساليب بعينها.

وأمَّا البلاغيون فقد اعتمدوا في توجيههم للعطف في الآية المباركة على تقدير محذوف يَصحُّ عطف الإنشاء عليه، وهم تَبَعٌ في ذلك لبعض النَّحويين المحكِّمين سلطةَ الإعراب، ومنع تعاطف الإنشاء والخبر[54].

فالإمام السَّكاكي ينقلُ بعضَ توجيهات الإمام الزَّمخشري للعطف في الآية الكريمة، فيقول: "وأمَّا قوله تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰ** ﴾ بعد قوله ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ** ﴾ فيُعَدُّ معطوفًا على: ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾[55]، ثم يَعمدُ إلى تقدير فعلِ قَولٍ؛ ليصحَّ عطفُ الأمرِ في الآية عليه، وهو كثيرٌ في القرآن كما يرى. يقول: " وعندي أنّه معطوف على (قُلْ) مرادًا قبل: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة:21)، لكون إرادة القول بواسطة انصباب الكلام على معناه غير عـزيـزة في القرآن[56]".

كما يلجأ الخطيب القزويني (ت :739هـ) في توجيه العطف في الآية إلى تقدير فعلٍ يَدلُّ عليه ما قبله؛ ليتناسب عطف الأمر عليه، يقول: "والأقرب أن يكون الأمر في الآيتين معطوفًا على مُقدَّرٍ يَدلُّ عليه ما

50 تفسير الطبري=جامع البيان في تأويل القرآن: 1/ 383، 384.

51 ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 1/197.

52 البيضاوي: 1/59.

53 تفسير أبي السعود: 1/67.

54 ينظر: مفتاح العلوم: 259. في توجيه السَّكاكي للعطف في الآيات (النَّمل :8 - 10).

55 مفتاح العلوم: 260.

56 المصدر السابق : 260.

قبله، وهو في الآية الأولى: (فَأَنْذِر) أو نحوه أي: فأنذرهم وبَشِّرْ الذين آمنوا، وفي الآية الثانية: (فَأَبْشِرْ) أو نحوه "؛ أي: فأبشِرْ يا محمد، وبشِّرْ المؤمنين[57]".

لم يوسّع البلاغيون - إذن - مفهومَ المناسبة والجامع، ليجاوزوا به أعطافَ الجمل المتفقة في معنى الخبريَّة أو الإنشائيَّة إلى الجمل المختلفة فيهما، ولو فعلوا، لوافقَ توجيههم للعطف في الآية المباركة توجيهَ المفسرين، لاسيما أن الآيتين يجمعُ بينهما التَّباين - وهو أحد مظاهر الجامع الوهمي- المتمثل في الجمع بين التَّرهيب من عقاب الكافرين، والتَّرغيب في ثواب المؤمنين. ولمَا تأَوَلُوا وقدَّروا هذا التَّقدير، ولأدركوا أنَّ الخبرَ عن الثَّاني (ثواب المؤمنين) مِمَّا يَجْرِي مَجْرى النَّقيضِ للخبر عن الأولِ (عقاب الكافرين)، ولعلموا أنَّ المحدَّثَ عنه في إحدى الجملتين بسببٍ من المحدَّثِ عنه في الأخرى. وهذا من أقوى وجوه المناسبة التي تُسوِّغ العطف بين الجمل. كما ذهب الإمام عبد القاهر في قوله: "واعلمْ أنَّه كما يَجبُ أن يكونَ المُحدَّثُ عنه في إحدى الجملتين بسَببٍ من المحدَّثِ عنه في الأخرى، كذلكَ ينبغي أنْ يكونَ الخَبرُ عن الثَّاني مِمَّا يَجْرِي مَجْرى الشَّبيهِ، والنَّظيرِ، أو النَّقيضِ للخبر عن الأولِ[58]".

ومثله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:19)، فأكثرُ النُّحاة على جواز الجزم على النَّهي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ وهو الأقوى عند الجمهور[59]، وإنْ ذَهَبَ بعضُهم إلى جواز نصبه عطفه على (أَن تَرِثُواْ) و(لا) لتأكيد النَّفي[60]، كما أجمعوا، وجمهور المفسرين على عطفه على النَّفي السَّابق عليه[61] في قوله: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ قال أبو حيَّان الأندلسي: "وظاهر قوله: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ أنَّ "لا" نَهْيٌ، فالفعلُ مَجزومٌ بها، والواو عاطفةٌ جملة طلبيَّة على جملة خبريَّة[62]"، ثم يشير أبو حيَّان إلى وجه المناسبة في عطف الإنشاء على الخبر في الآية الكريمة بقوله: " فَإِنْ قلنا: شرط عطف الجمل المناسبةُ، فالمناسبةُ أن تلك الخبريَّة تضمَّنت معنى النَّهي، كأنَّه قال: لا تَرِثوا النِّساء كَرهًا فإنَّه غير حلال لكم، ولا تعضلوهن[63]".

ووافقه السَّمين الحلبي في ذلك، حيث أشار إلى اشتراط البلاغيين وبعض النَّحويين توافق الجمل في العطف، فقال: " قوله: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فيه وجهان: أظهرهما، أنه مجزوم بـ «لا» النَّاهية، عطف جملة نَهي على جملة خبريَّة، فإنْ لم تُشترَطِ المناسبة بين الجمل كما هو مذهب سيبويه فواضح، وإنْ اشترطنا ذلك كما هو رأي بعضهم: فلأنَّ الجملة قبلها في معنى النَّهي، إذ التَّقدير: لا ترثوا النِّساء كَرهًا فإنَّه غير حَلال لكم. وجعله أبو البقاء على هذا الوجه مُستأنَفًا، يعني أنه ليس بمعطوف على الفعل قبله[64]".

وينبغي ألَّا تحجبنا قناعتُنا بالإعراب عن النَّظر في سياق حال (نزول) الآيات؛ لأنَّه "لن يُتصوَّرَ أن يكونَ لِلَّفظِةِ تعلُّقٌ بلفظةٍ أُخرى من غير أن يُعتَبر حال معنى هذا مع معنى تِلكَ، ويُراعى هناك أمرٌ يصلُ إحداهما بالأُخرى[65]".

57 الإيضاح: 3/131. ومثلها قوله تعالى: (الصف:13).

58 دلائل الإعجاز: 225.

59 ينظر: معاني القرآن : 1/259. ومعاني القرآن وإعرابه : 2/30. والدر المصون : 3/628.

60 ينظر: معاني القرآن وإعرابه: 2/30. والكشاف : 1/493.

61 ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني : 3/1150. ومفاتيح الغيب : 10/11. وتفسير البيضاوي: 2/66. وتفسير النسفي : 1/376. وتفسير النيسابوري : 2/376. وروح المعاني : 2/450.

62 البحر المحيط 3/569. وينظر: الدر المصون: 3/628.

63 الدر المصون: 3/569. وينظر: تفسير القرطبي:5/94.

64 الدر المصون:3/628.

65 دلائل الإعجاز: 406.

فقد رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما في أسباب نزول هذه الآية الكريمة: أنَّهم كانوا إذا مَاتَ الرَّجل كان أولياؤه أحق بامرأته؛ إنْ شاءَ بعضُهم تزوجَها، وإنْ شاءوا زوَّجُوها، وإنْ شاءوا لم يُزوِّجُوها، وهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك[66].

وقد تواترتْ أقوالُ النُّحاة والمفسرين في دلالة الخبر في الآية: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ على النَّهي، قال الحسن: "هو نَهيٌّ لوَلِيِّ الزَّوج الميت أن يمنعها من التزويج على ما كان عليه أمر الجاهلية[67]". قال الطَّبري: ووُجِّه الكلامُ إلى النَّهي عـن وراثة النِّساء، اكتفاءً بمعرفة المخاطبين بمعنى الكلام، إذا كان مفهومًا معناه عندهم[68]".

ولم يرد عن علماء الوقف والابتداء وجوب الوقف (الفَصْل) على الخبر دون الإنشاء في هذا الموضع، وإنَّما ورد عنهم ترجيح الوَصْل على الفَصْل فيه، ويؤكِّدُ ذلك وضعُهم علامة (ۖ) التي تفيد بأنَّ الوصل أَوْلَى من الوقف؛ لتعلُّق الثَّانية (الطَّلبيَّة) بالأولى (الخبريَّة) لفظًا ومَعنىً. وفي ذلك دليل على صحة عطف الإنشاء على الخبر في الآية الكريمة. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الأحزاب:47-45).

وهكذا عَوَّلَ النُّحاةُ والمفسرون في استنباط المناسبة على النَّظر في دلالة كلٍّ من الخبر والإنشاء، وما قد يتضمنه الخبرُ من معنى الإنشاء والعكس، كما عَوَّلوا على قرائن المقام، كأسباب النزول التي قد ترجِّحُ تَضمُّن الخبر معنى الإنشاء وعكسه، هذا فضلًا عن اعتبار رأي علماء الوقف والابتداء في مثل هذه المواضع -وهم أولي الأيدي والأبصار في هذا الباب- لأنَّهم التزموا بإيراد هذه الوقوف لدقة مسلكها، وقد فعلوا هذا بحسب الصِّياغة وما هم فيه بطرق الصِّناعة وكلٌّ من الفريقين تابعٌ لارتباط المعنى بالمعنى، وانفصاله عنه بالكل أو بالبعض[69].

2.3. عطفُ الخبرِ على الإنشَاء في النَّظم القرآني

وَرَدَ عطفُ الخبر على الإنشاء في غير موضعٍ من كتاب الله تعالى، نذكرُ منها هذه المواضع: (المائدة: 64)، و(الأنعام: 72، 102،121)، و(الأعراف: 89)، و(التوبة: 52)، و(النور:57)، و(فاطر:37)، و(الزخرف:13-14)، و(الضُّحى: 8-6)، و(الشَّرح: -1 2)، و(الفيل: 3-2).

قال الله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (النور:57).

استبعَدَ العطفَ في الآية الكريمة جَمَاعةٌ مِمَّن لا يرونَ عطفَ الخبر على الإنشاء؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ نَهْي، وقوله تعالى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ خَبرٌ، ولا يجوز-عِنْدَهم- أَنْ عطف الخبر على الإنشاء؛ لِتَبَايُنِهِمَا في المعنى؛ ولذلك كان الفَصْلُ عندهم على ﴿يِنَ. فقال مَكِّي بن أبي طالب (ت437هـ): " ومعنى الآية: لا تَحسبَنَّ يا محمد الذين كفروا مُعجزين في الأرض إذا أرادَ الله هلاكهم، وتَمَّ الكلام على(ٱلْأَرْضِ) ثم ابتدأ بخَبرٍ آخرَ عن عاقبةِ أمرهم، فقال: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ قيل: هو معطوف على محذوف تقديره: بل

66 أسباب نزول القرآن: 147.

67 أحكام القرآن: 3/46. وينظر: الكشاف : 1/490.

68 الطبري: 8/110.109.

69 ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 1/45.

هم تحت القُدرة (وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بعد هلاكهم[70]". فتكون جملة: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب معطوفة على استئنافٍ مُقدَّر، أي: بل هم تحت القُدرة، أو بل هم مقهورون ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

وذَهَبَ الزَّمخشري إلى شَيءٍ من هذا، فقال: " وعطف قوله: (وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ على: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ كأنّه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله (وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [71]". فتأوَّلَ جملةَ النَّهي ﴿ لا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ بجملة خبريَّة دالة على النَّفي؛ حتَّى تقع المناسبة. إذْ المقصود بالنَّهي عن الحسبان تحقيقُ نفي الحسبان كأنَّه قيل: الذين كفروا ليسوا معجزين ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [72]". وتشير دلالة النَّهي على النَّفي إلى المبالغة في التَّحقيق، وأنَّ ذلك معلوم لهم لا ريب، فهو عطف على المعنى بقصد بيان الارتباط والمناسبة بين الجملتين في الآية الكريمة.

أمَّا مَن لا يَرونَ المناسبةَ شَرطًا في عطف الخبر على الإنشاء وعكسه، فذهبوا إلى عطف جملة الخبر في الآية الكريمة على جملة النَّهي قبلها من غير تأويل ولا إضمار؛ لأنَّهم لا يشترطون توافق المعنى في عطف الجمل. "بل يجوز عطف الجمل على اختلافها بعضًا على بعض، وإنْ لم تتحد في النَّوعية، وهو مذهب سيبويه[73]".

أمَّا علماء الوقف والابتداء فيرون جواز الوقف على (ٱلْأَرْضِ)، ووضعوا العلامة الدالة على ذلك(ۚ)؛ "لانقطاع النَّظم مع اتِّحاد المقول[74]"، وهو وقف صالح عند بعضهم[75].

ومن الآيات التي ورد فيها عطف الخبر على الإنشاء كذلك، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ (الشرح: 1-2).

وَجَّه كثيرٌ من المفسرين العطف في الآية الكريمة بأنَّه عطفٌ على التّأويل لا على التَّنزيل. قال القرطبي: " ومعنَى: (أَلَمْ نَشْرَحْ) قَدْ شَرَحَنا، والدَّليل على ذلك قوله في النَّسَق عليه:(وَوَضَعْنَا) فهذا عطفٌ على التَّأويل لا على التَّنزيل؛ لأنَّه لو كان على التَّنزيل لقال: ونضَعْ عنك وزرَك. فَدلَّ هذا على أن معنى (أَلَمْ نَشْرَحْ) قد شرحنا[76]"؛ لأنَّ ألف الاستفهام معناها التَّوقيف على النِّعم والآلاء التي سبقَ ذكر بعضها في السورة السابقة في قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:8-6) فبدخول همزة الاستفهام على النَّفي لم يعدِ الأسلوب أسلوبَ نفي ولا استفهام؛ لأنَّ أداة النَّفي مستعملة مع الاستفهام لتحقيق غرض جديد هو التَّقرير؛ ولذلك "عطف عليه: اعتبارًا للمعنى[77]"، وهو جائز عند جمهور النَّحاة[78].

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر:37)، فعطفَ الخبر (وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِير) على معنى الاستفهام: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم) لأنَّ "مَعنَى: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم) قَدْ عَمَّرْنَاكُمْ، فلفظُه لفظُ استخبار، ومعناه معنَى إخبار، كأنّه قيل: قد عمّرناكم وجاءكم النّذير[79]".

70 الهداية إلى بلوغ النِّهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه: 8/ 5146.

71 الكشاف: 3/252. وينظر: تفسير البيضاوي: 4/ 113. وتفسير النَّسفي: 2/517.

72 ينظر: روح المعاني : 9/399. والبيضاوي: 4/113. والنسفي : 2 /517. وأبو السعود: 6/192

73 البحر المحيط: 8/67. وينظر: الدر المصون: 8/437.

74 رائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/208.

75 ينظر: المقصد لتلخيص ما في المرشد: 61.

76 تفسير القرطبي:20/105. وتفسير النسفي: 3/656.

77 الكشاف : 4/770. وينظر: البحر المحيط: 10/499. والدر المصون: 11/43.

78 مغني اللبيب: 25.

79 ينظر: الكشاف: 3/616. والبحر المحيط: 9/37. والدر المصون: 9/237.

ومثله قوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام:121)، اختلف النُّحاة والمفسرون في توجيه عطف الخبر (**وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ**) على الإنشاء (**وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ**) فذَهَبَ مَنْ لا يرى عطف الخبر على الإنشاء إلى القول باستئناف جملة (**وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ**) وبأنَّها حاليَّة[80]، في حين ذَهَبَ شيوخ النُّحاة، والمفسرون إلى القول بعطفها على ما قبلها ولا يبالي بتخالفهما، وهو مذهب سيبويه والجمهور[81].

وقد يتأسَّسُ على القول بعدم جواز عطف الخبر على الإنشاء حُكمٌ فِقهي يختلف عن الحكم حال العطف، كما في هذه الآية، فالفَصْل (الوقف) على قوله تعالى: (عليه) يدلُّ عند الحنفيَّة على النَّهي عن الأكل مطلقًا من متروك التَّسمية عمدًا[82]؛ لأنَّهم جعلوا " الواو" في قوله:"(وإنه) للحال، وليست للعطف؛ لاختلاف الجملتَيْن في الخبر والإنشاء. ومن ثم " تكون جملة الحال مُقَيَّدة لِلنَّهْيِ والمعنى: لا تأكلوا منه في حال كونه فسقًا[83].

استنَدَ المفسرون - إذن- إلى التَّوجيه الدلالي لأسلوبي النَّهي والاستفهام في الآيات السَّابقة؛ لتحقيق المناسبة التي تُسوِّغ عطف الخبر على الإنشاء؛ فلمَّا كان النَّهي دالًّا على النَّفي في آية سورة (النور: 57)، صَحَّ عطفُ الخبر عليه، ولمَّا كان الاستفهام دالًّا على التَّقرير في آيتي سورة (الشَّرح: 2-1)، وآية سورة (فاطر:37) صحَّ عطف الخبر عليه كذلك.

وهكذا كان النَّظرُ في مقام الكلام وسياقاته، ودلالات الصِّيغ والتَّراكيب من وسائل الوقوف على المناسبة والجامع في تعاطف الخبر والإنشاء.

80 ينظر: تفسير أبي السعود:3/180. وتفسير الآلوسي:4/259. ومحاسن التأويل: 4/478.

81 الدر المصون: 5/131.

82 ينظر: أحكام القرآن:4/172. وينظر:الوقف القرآني وأثره في الترجيح عند الحنفية: 71، 73.

83 ينظر: روح المعاني : 4/261.

خاتمة:

بعد كل هذه الأمثلة والتوضيحات يمكن أن نجمل ما توصلنا إليه في هذا الباب إلى ما يأتي:

- مَنَعَ البلاغيون تعاطف الخبر والإنشاء؛ لعدم التَّناسب بين معاني الجمل، ومن ثَم اقتصرَ مفهومُ المناسبة عندهم على الجُمل المتفقةَ في معنَى الخبر أو الإنشاء.
- يُقصد بمفهوم المناسبة عند النُّحاة الذين أجازوا تعاطف الخبر والإنشاء، المناسبة في المعنى الدلالي الذي يُفْهم من عموم التَّركيبَيْن الخبري والإنشائي في سياقهما، حيث يقومُ على صحَّة المعنى الدلالي، وليس على المعنى النَّحوي للخبر والإنشاء.
- عَوَّلَ جمهور المفسرين على التَّوجيه الدلالي للأساليب الإنشائيَّة، وعلى أسباب النزول في تحقق المناسبة في تعاطف الخبر والإنشاء، فإنْ لم يُتِحْ لهم السِّياقُ ذلك؛ قالوا بالعطف على التَّأويل لا على التَّنزيل؛ اعتبارًا للمعنى. وهم موافقون في ذلك لجمهور النُّحاة الذين لا يشترطون التناسُب اللَّفظي بين الجملِ المتعاطفةِ.
- سيطرتْ فكرةُ العامل النَّحوي ومفهومُ التَّشريك في الحكم الإعرابي الذي يفيده العطف بـ (الواو) على كثيرٍ من النَّحويين-الأمر الذي دفعَهم إلى القول بعدم جواز تعاطف الخبر والإنشاء.
- دَلَّ التَّماسكُ النَّصي وتعلُّقُ الكلَم بعضه ببعض في النَّظم القرآني على صحَّة تعاطف الخبر والإنشاء في النَّظم القرآني. وقد أكَّدَ هذا المعنى علماءُ الوقف والابتــداء بما وضعوه من علامــاتٍ تدلُّ على جــواز تعاطفهما، وكذلك علمــاء التفسير، وجمهور النُّحاة.
- لم تفسرِ القواعدُ التي وضعهـا البلاغيـون كلَّ مـا وردَ في كتاب الله تعالى مـن فَصْلٍ ووَصْلٍ؛ مِمَّا دفع بهم إلى التَّأويل حفاظًا على اطراد قواعدهم.
- كان لتعلق الكلام الموقوف عليه بما بعده في اللَّفظ والمعنى أثرٌ في تحديد نوع الفَصْل (الوقف) على الكلمة القرآنية.
- أدَّى اختلافُ النُّحاة والبلاغيين والمفسرين في توجيه العطف في الجمل الخبرية والإنشائية إلى اختلافهم في استنباط الفقهاء لبعض الأحكام الفقهية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الجزري محمد بن محمد. النشر في القراءات العشر. تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، بدون تاريخ.
- ابن الأثير ضياء الدين. المثل السَّائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق الشيخ كامل محمَّد عويضة. دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1419هـ / 1998م.
- ابن الأزهري محمد بن أحمد أبو منصور. معاني القراءات للأزهري. مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، السعودية، ط1، 1412هـ.
- ابن الجزري محمد بن محمد. التَّمهيد في علم التجويد، تحقيق علي حسين البواب. مكتبة المعارف بالرياض، ط1، 1405هـ / 1985م.
- ابن الجزري محمد بن محمد. شرح طيبة النَّشر في القراءات. ضبط وتعليق الشيخ أنس مهرة. دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1420هـ / 2000م.
- ابن المبارك عبد الله بن علي. الكنز في القراءات العشر. تحقيق دكتور خالد المشهداني. مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة بالقاهرة، ط1، 1425هـ / 2004م.
- ابن الوراق محمد بن عبد الله بن العباس. علل النَّحو. تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، ط1، الرياض، السعودية، 1420هـ.
- ابن جني أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمَّد علي النَّجار، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن جني أبو الفتح عثمان. سرُّ صناعة الإعراب. دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطَّبعة الأولى، 1421هـ / 2000م.
- ابن عاشور محمد الطاهر. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، تونس 1984.
- ابن عطية الأندلسي عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ.
- ابن عطية الأندلسي. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق عبد السَّلام عبد الشَّافي. دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1422هـ.

• ابن فارس أحمد. الصَّاحبي في فقه اللُّغة العربيَّة. دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1418هـ / 1997م.

• ابن فارس أحمد. معجم مقاييس اللُّغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1399هـ / 1979م.

• ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة. دار طيبة، ط2، 1420هـ / 1999م.

• ابن منظور المصري. لسان العرب. مكتبة إحياء التراث العربي بالقاهرة. الطبعة الثانية 1418هـ / 1997م.

• ابن هشام عبد الله بن يوسف. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، ط6، دمشق، 1985م.

• ابن يعيش بن علي أبي السرايا محمد. شرح المفصل للزمخشري. قدَّم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، 2001م.

• أبو السعود العمادي محمد بن محمد. تفسير أبي السعود. دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

• أبو الوفا على الله بن علي. القول السَّديد في علم التَّجويد. دار الوفاء بالمنصورة -مصر، ط3، 1424هـ / 2003م.

• أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي. البحر المحيط في التفسير: تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

• أبو عمر الداني عثمان بن سعيد بن عمر. المكتفى في الوقف والابتدا. تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار، ط1، 1422هـ.

• أحمد سعـد محمد. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنيـة. مكتبـة الآداب، القاهرة، ط.2، 1421هـ / 2000م.

• أحمد مختار عمر. دراسة الصَّوت اللُّغوي. عالم الكتب بالقاهرة، 1396هـ.

• استيتية سمير شريف. حروف القلقلة، دراسة فيزيائيَّة مخبريَّة. بحث بمجلة أم القرى لعلوم اللُّغات وآدابها، العدد العاشر، رجب 1434هـ / مايو 2013م.

• الأزهري سميح أبو معلي. معجم تهذيب اللُّغة. تحقيق الدكتور. دار الفكر بعمَّان - الأردن، ط1، 1418هـ / 1998م.

• الأشموني علي بن محمد بن عيسى. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك. دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1419هـ / 1998م.

• الأصفهاني الحسين بن محمد المعروف بالراغب. تفسير الراغب الأصفهاني، كلية الآداب، ط1، جامعة طنطا، 1420هـ.

• الألوسي محمود بن عبد الله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن. تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ.

• الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن.. دار المعارف بمصر، 1971م.

- البيضاوي عبد الله بن عمر بن محمد. تفسير البيضاوي. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ط1، بيروت، 1418هـ.
- التفتازاني سعد الدين مسعود بن عمر. المطول: تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- الجاحظ أبـو عثمان عمرو بن بحـر. البيان والتبيين. دار ومكتبة الهـلال، بيروت، 1423هـ.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتَّبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطَّبعة الخامسة 1405ه / 1985م.
- الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن. دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط3، دار المدني بجدة، 1992م.
- الجرجاني عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق محمود شاكر. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، 1413هـ / 1992م.
- الجرجاني علي بن عبد العزيز. التَّعريفات، تحقيق إبراهيم الإبياري. دار الرَّيان للتُّراث بالقاهرة. بدون تاريخ.
- الجرجاوي خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد. شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، 1421هـ / 2000م.
- الجريسي محمد مكي نصر. نهاية القول المفيد في علم التجويد. راجعه وعلق عليه الشيخ طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا بالقاهرة، ط1، 1420هـ / 1999م.
- الجصاص أحمد بن علي أبو بكر. أحكام القرآن، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ.
- الخفاجي ابن سنان. سرُّ الفصاحة. دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ / 1982م.
- الخفاجي شهاب الدين أحمد بن محمد. حَاشِيةُ الشِّهَابِ. دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي. معجم العين. تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1424هـ / 2003م.
- الخولي محمد علي. معجم علم الأصوات. مطابع الفرزدق التِّجاريَّة بالرياض، 1982م.
- الداني أبو عمرو، التَّحديد في الإتقان والتَّجويد، تحقيق الدكتور غانم قدوري حمد. مكتبة دار الأنبار، بغداد، ط1، 1407هـ / 1988م.
- الدمشقي عمر بن علي بن عادل. اللباب في علوم الكتاب. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1419هـ / 1998م.
- الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن. مفاتيح الغيب. دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420هـ.
- الراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن. راجعه قدَّمَ له وائل أحمد عبد الرَّحمن. المكتبة التَّوفيقيَّة بالقاهرة، طبعة 2003م.

- الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل. معاني القرآن وإعرابه. تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1408هـ.
- الزركشي محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1957م.
- الزمخشري أبو القاسم. الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنزيل. دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، 1407هـ.
- الزمخشري محمود بن عمرو بن أحمد. المفصَّل في صنعة الإعراب. تحقيق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1993م.
- السبكي بهاء الدين. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، لبنان، 1423هـ.
- السَّعران محمود. علم اللُّغة مقدمة للقارئ العربي. دار الفكر العربي بالقاهرة ط2، 1997م.
- السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد. مفتاح العلوم. ضبطه وعلَّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1407هـ.
- السَّمين الحلبي، أحمد بن يوسف. الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، ط1، دمشق، 1986م.
- السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد. نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي. دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1412هـ / 1992م.
- السيوطي جلال الدين. المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها. تحقيق محمَّد أحمد جاد المولى بك، وآخرين. دار إحياء الكتب العربيَّة بالقاهرة، ط3، بدون تاريخ.
- الشخاوي أبو الحسن. جمال القُرَّاء وكمال الإقراء، تحقيق مروان العطية، ومحسن خرابة. دار المأمون للتراث بالقاهرة، ط1، 1418هـ / 1997م.
- الشوكاني محمد بن علي بن محمد. فتح القدير. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، دمشق، بيروت، 1414هـ.
- الصبان محمد بن علي. حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك. دار الكتب العلمية ط1، بيروت-لبنان، 1417هـ.
- الضالع محمد صالح، التَّجويد القرآني دراسة صوتيَّة فيزيائيَّة. دار غريب بالقاهرة، 2002م.
- الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر. جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ / 2000م.
- الطبري محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر بالقاهرة، ط1، 1422هـ / 2001م.
- العسكري أبو هلال. كتاب الصِّناعتين. تحقيق مفيد قميحة. دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1409هـ / 1989م.

- العكبري أبو البقاء عبد الله بن الحسين. التبيان في إعراب القرآن. تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.
- الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد. معاني القرآن. تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط1، مصر بدون تاريخ.
- الفراء أبو زكرياء. معاني القرآن. تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مراجعة على النَّجدي ناصف، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، طبعة 2001م.
- الفيروزابادي مجد الدين. بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق محمَّد على النَّجار. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1421هـ / 2000م.
- القاضي عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد. الوافي في شرح الشَّاطبيَّة في القراءات السَّبع. مكتبة السوادي للتَّوزيع بجدة، المملكة العربية السعودية، ط4، 1412هـ.
- القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر. تفسير القرطبي. تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1384هـ.
- القزويني الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. ، تحقيق محمَّد عبد المنعم خفاجي. دار الجيل، بيروت، ط3. 1414هـ / 1993م.
- القزويني محمد بن عبد الرحمن جلال الدين. الإيضاح في علوم البلاغة: القزويني تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط3، بيروت، بدون تاريخ.
- الماتُريدي أبو منصور. تأويلات أهل السُّنة. تحقيق الدكتور مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط1. 1426هـ / 2005م.
- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي. المقتضب. تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
- المسيري كامل. الجامع في تجويد قراءة القرآن الكريم. دار الإيمان بالإسكندرية، 2005م.
- النجار محمد عبد العزيز. ضياء السالك إلى أوضح المسالك. مؤسسة الرسالة، ط1، 1422هـ / 2001م.
- النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل. إعراب القرآن. وضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1421هـ.
- النسفي عبد الله بن أحمد بن محمود. تفسير النسفي. تحقيق: يوسف علي بديوي، راجعه: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، ط1، بيروت، 1998م.
- النُّوَيْري محب الدين. شرح طيبة النَّشر في القراءات العشر. تحقيق الدكتور مجدي محمَّد باسلوم. دار الكتب العلمية- بيروت، ط1 1424هـ / 2003م.
- النيسابوري الحسن بن محمد بن حسين. غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه، ط1، بيروت، 1416هـ.
- الواحدي علي بن أحمد. أسباب نزول القرآن: ، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، ط2، الدمام، السعودية، 1992م.

- أنيس إبراهيم. الأصوات العربيَّة، دار النَّهضة العربيَّة بالقاهرة، 1961م.
- بدر الدين حسن بن قاسم. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك. شرح وتحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط1، 2008م.
- ديوان جرير. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1406هـ / 1986م.
- رمضان عبد التواب. التَّطور اللُّغوي: مظاهره وعلله وقوانينه. مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1404هـ / 1998م.
- سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1408هـ / 1988م.
- شحاته كرار محمد. الوقف القرآني وأثره في الترجيح عند الحنفية. موسسة المختار، ط1، القاهرة، 1424هـ / 2003م.
- شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1414هـ / 1994م.
- صبحي إبراهيم الصالح. دراسات في فقه اللُّغة. دار العلم للملايين- لبنان، ط1، 1379هـ / 1960م.
- عبد القادر حسين. أثر النُّحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة 1998م.
- عبد الله بن يوسف بن هشام. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب.
- علي بن عثمان بن محمَّد. سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي. راجعه علي الضبَّاع. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1954م.
- كمال بشر. علم اللُّغة العام. دار المعارف بالقاهرة، 1973م.
- كيكلدي صلاح الدين أبو سعيد خليل بن. الفصول المفيدة في الواو المزيدة. تحقيق: حسن موسى الشاعر، دار البشير، ط1، عمان، 1410هـ.
- مصطفى عبد الشافي. ديوان امرئ القيس. دار الكتب العلمية، ط5، بيروت، 1425هـ / 2004م.
- مكي بن أبي طالب القيسي. الرِّعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التِّلاوة. تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات. دار عمار بالأردن، ط3، 1417هـ / 1996م.
- مكي بن أبي طالب القيسي. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط1، جامعة الشارقة، 1429هـ.
- مواهب الفتاح: المطبعة الأميرية ببولاق، ط1، القاهرة،1318هـ.

سلسلة الدراسات التخصصية في مجال
تعليم اللغـة العربيـة للناطقين بغيرها



نُشر سنة 2022 من طرف
منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة
-إيسيسكو-

شارع الجيش الملكي . حي الرياض
ص. ب. 2275 . ر. ب. 10104
الرباط . المملكة المغربية

الإيداع القانوني : 2022MO0679

ردمك : 978-9920-682-32-9

منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة
ISLAMIC WORLD EDUCATIONAL, SCIENTIFIC AND CULTURAL ORGANIZATION
ORGANISATION DU MONDE ISLAMIQUE POUR L'EDUCATION, LES SCIENCES ET LA CULTURE

سلسلة الدراسات التخصصية في مجال
تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها



في فلسفة الأداء الصوتي في القرآن الكريم للمتعلمين

د. سعد عبد الغفار | د. عطية يوسف

سلسلة 9 | 2021

مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها





د. سعد عبد الغفار

كلية الآداب
جامعة الوادي الجديد،
جمهورية مصر العربية

د. عطية يوسف

كلية الدراسات الدولية واللغات
جامعة إنديانا،
الولايات المتحدة الأمريكية

النَّصُّ القرآني نَصٌّ شَفاهيٌّ بالمقام الأول، تلقَّاه النَّبيُّ، صلى الله عليه وسلَّم، مشافهةً عن جبريل، عليه السَّلام، ومن ثَم كان الأصل في حفظه التَّلقي عن أصحاب الأسانيد المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لِمَا له من خصوصيةٍ في الأَدَاء لا تنفصلُ عن مراد الله تعالى فيه؛ ولهذا الاعتبار رَاحَ علماء القراءات يجتهدون في ضَبط طُرقِ الأَدَاء القرآني، فوضعوا علمَ التَّجويد، وعلمَ الوقف والابتداء.... وهم شاخصون في ذلك كلِّه إلى ضبط الأداء القرآني؛ ليَحسُنَ فَهمُ النَّاسِ وتلقيهم عن كتاب الله تعالى؛ وليحافظوا على خصوصية النَّغم القرآني، الذي كفلَ له أنْ يُدركَ ضمن استمراريَّة عابرة للتاريخ، متجاوزة للتموقع والتَّحقيب الزَّماني، والفضاء المكاني.

ويمثل الأَدَاء الصوتي للقرآن الكريم بهذا المفهوم ظاهرةً شديدة الاتساق والانضباط؛ بوصفها قرينةً صوتيَّةً يُعوَّلُ عليها في توجيه المعنى وإفهامه، وتُسليط الضوء على خصوصية الأداء القرآني، الذي يُقيمُ من نفسِهِ حُجَّةً على إعجاز هذا النَّص للناطقين بالعربية، والناطقين بغيرها، ومن ثَم التسليم بكل ما جاء به.

المؤلفان

JOIN US ! انضموا إلينا REJOIGNEZ-NOUS